

وفاء

عندما يتوجه المثقف كامل شياع من بлагة الكلمة إلى بлагة الدم

إعداد وتحرير
مجلة الأقلام

بغداد - الطبعة الأولى - ٢٠٠٩

**عندما يتوجه المثقف
كامل شياع من بلاغة الكلمة
إلى بلاغة الدم**

كامل شيع ونحن

الاستذكار ليس سوى ماض يستعاد، ليس سوى حاضر يشده الحنين الى الوراء، ماض وحاضر يتداخلان معا، يتبسنان وينصهران في رغبة واحدة، في فعل واحد. من هنا ينبثق هذا الكتاب، مجموعة اوراق تعلم نفسها لتجسد حضور مثقف غيبه القتل، لكن بلاغة الكلمة تعمل هنا على تحويل الغياب الى حضور.

ثمة كتابات له، واخرى عنه، وحوارات اجريت معه، نصوص تم انتقاها بجهد متواضع، لإبراز آثار كامل شيع، آرائه وافكاره، ولمعرفة الصورة التي شكلها والاطياع الذي خلفه لدى المثقفين ومن جايده او عاصره أو احتك به او قرأ له أو تأثر به. ليس القتل غريبا على العراقيين، فقد باتت أخباره همّا يوميا ثقيلاً بعد ٩ نيسان ٢٠٠٣، ورغم ان الكثير منهم كان مرشحا للقتل في انفجار سيارة مفخخة او عبوة ناسفة، الا ان استهداف الشخصيات كان يثير تساؤلات أكثر، وقد اثار مصرع كامل شيع صدمة بالغة وتساؤلا حساسا:

هل المثقف مستهدف للقتل والتصفية؟! ربما خفت تلك الصدمة في ذكرى السنوية الأولى؟ لأن الاجابة عن هذا التساؤل لم تكن بالإيجاب؟! لكن اثر الصدمة مازال قائما، ربما لأننا لم نعرف بعد قتلة كامل شيع، ولم قتلوه؟! ربما لأن اصوات الرصاص ما زالت عالية تحقيقينا، ونخشى غدرها. ربما، ايضا لأن الثقافة (بمعناها البداعي) ما زالت ملتقبة بالسياسة فما زال المثقف لا يرسم الحدود بينه وبين السياسي وما زالت السلطة تريد تدجين الثقافة وحشدتها لصالحها مقابل ثقافة لم تستطع ان تخلص نفسها بعد من أحباب السياسة .

هل طرح مصرع كامل شياع هذه التساؤلات بجدية فاعلة للنقاش في وسطنا الثقافي ؟
 ام ظلت مجرد هواجس تجترها شريحة مضطربة لم تحدد بعد ما الذي تريده بعد التغيير
 الذي احدثه الآلة العسكرية الاميركية ؟ وهل كانت صدمة رحيله الدموي حافزا لاثارة
 الجدل المثير بشأن موقف المثقف ازاء ما يحدث ؟ ام كانت مجرد فرصة للبكاء والتحبيب
 والتعبير عن الاستياء من الوضع الراهن وانتقاد السلطة وتأبين الرجل ببلاغة ادبية رفيعة
 شعرا ونثرا ؟ ولقد ادمتنا تأبين مبدعينا وهم يرحلون ...

كان كامل شياع من اولئك الذين تقاسمتهم المنافي بعد ان عجز الوطن عن احتضانهم
 في حقبة مزقت فيه الدكتاتورية اوصال المجتمع وعرى الوطنية فانتهكت الحقوق
 والحربيات وبات الهروب وسيلة القادرين على النجا، لكن العودة المحملة بالاحلام الى
 الوطن لم يتسن لها ان تؤسس لوجودها الجديد لاسيما في تسنمها لدور ثقافي في وزارة
 الثقافة لدور بدا للبعض انه سيستعيد من خلاله مجد المثقف اليساري الذي يحمل لواء
 التقدم. هذا الكتاب محاولة متواضعة لتقديم نبذة انتقائية يسيرة عن تاريخ مثقف
 ومنجزه ورؤاه، مثقف رحل مبكرا، ولم ير تطلعاته وطموحاته تتحقق او يكتمل
 تحقيقها. ولم يكن بوسع مجلة الاقلام سوى ان تبذل هذا الجهد لتسهم بتحويل رحيل
 شياع الى علامة محفزة لمواجهة تحديات آلة القتل والغدر والخراب .

مجلة الأقلام
 آب / ٢٠٠٩

القسم الأول

شهادات عن الشهيد كامل شياع

عند شرفته كاملاً شياع..

نوفل ابو رغيف

ليس ثمة ما يمكن أن يوازي مفردة صادقة في قاموس الوفاء، الشاسع بمعانيه ومدياته، مثلاً ما ليس في الذاكرة ما يسعفها لاستعادة ما يصلح ليكون من نافلة القول في مقام الحديث بهذا العنوان المفتوح (الوفاء) ..

وما أصعب ادعاء القدرة على مواجهة عنوان كهذا وفي موقف كهذا!.

أية مفردات؟ أية سطور؟ أية قصيدة ستفي عطش الروح؟..

هل يجد الحزن ظاللة في رُحمة المواقف والخسارات والأمان؟

أما عن ماذا يمكن أن يتحقق بعد هذه التساؤلات والاختلالات العراقية بامتياز، فلا أظن أنه أكثر من هذه الإضمامات تكلّلها رغبة تحاول استنطاق عبرة حبّيسة صنعتها لحظة السماع بانطفاء رجل نبيل طالما ملأ وسطنا بهجةً وأملًا وحبًا.

هذه إضمامات وجد عراقي صنعته سنوات الاستفادة الأولى عند رجوع الحرب أملاً في انقضائها... إضمامات حنين وحب مرتبك في حضرتك يا بارقاً في سماء ثقافتنا، إنها زوادات رحلة نحن الأحوج إليها في عالم صار خاليًا من همسك بعدهما برحّته روحك وغادره جسدك وبات بلا صوتك الهدائي كجبل،.. وبلا همسك النديان كحبات مطر في زمان تقاسمه الجدبُ والم الموت..

هذه حالنا.. يا صديق الأمل والامنيات والتعب..

أما أنت.. فقد سرقتك المشيئه؟! وأية مشيئه؟! قبل أن ينضج البلح الذي انتظرته منذ ولادة هذا العراق بعد موت دام عقوداً ثقال..

وهكذا تمضي قبل حفل العشاء الأخير، وقبل ان تمتلئ سلال العنبر من عنبك الحلو
الريان..

هذه اضمامامة ذاكرة تنتهي لقلبٍ ممن عرفتك قلوبهم. بعيداً وقريباً.. وأقاموا بجوارك..
بعيدين قربين، وخانتهم أحالمهم في ان يحيى يوم وانت تضم ذراعيك فتشتباك مع
أذرعهم لاستقبال الوطن العائد توأ..

لقد انتظرت كثيراً يا صديقنا النبيل واحتملت طويلاً يا صديق الأمل الهداء والذوق
والحكمة والنقاء، ربما ظلمك الصغار على امتداد أزمنة قريبة ونالوا منك لأنك كبير،
والكبار يستقررون الصغار، لا لشيء إلا لأنهم كبارٌ وهو قدرهم، ولكن لا عليك فالأشياء
بخواتيمها و كنت مسك خاتم.

ليست خسارة عادية، وليس موتاً عابراً، وليس فصل الختام في رواية الصباحات
 الأخيرة.. هذا الانصراف القسري المعتم..

كانت المرة الأولى.. والمرة التي وسمتها لحظة الاكتشاف، حين جمعتنا طاولة حميمة في
مكتب أول وزير ثقافة في عراق الانتظارات والموت العاجل وال عمر الأجل.. وكانت لحظة
الاكتشاف الثانية عند الغرفة التي تتصدر مدخل اتحاد الأدباء.. ساعتها كان يمارس
حضوره اليومي الى هناك.. منهمكاً بالبحث عن وسائل شتى تمكّنه من تقديم ما يجعله
راضياً عن نفسه (ونحن نؤسس معاً لمهرجان شاعر العرب الأكبر، لأول مرة) في هذه البلاد
التي تأكل الفلاسفة والشعراء والأنبياء.. وتتنزف الأولياء والصالحين والمثقفين دون ان
تكتفي.

فمتي يشع رغبته هذا الموت المجنون؟ متى تحضرن هذه البلاد رموزها ورجالها
وابناءها الابرار؟ متى تشعر الكلمة والقصيدة بالأمان؟ متى يرحل أعداء الثقافة عن هذه
البلاد التي يريدونها سبيّة مكسورة الخاطر مذبوحة حدّ الظلم؟.

* لو أنت لم تحدثنا عن شووك لـألياس وحنينك لتفاصيله ومشروعك في السعي لاقتناعه بالعودة وتقاسم أفياء بغداد وحذايقها الأنثىسة، ولو أنت لم تقاسمنا آخر مرة، طعم العمر ونقاء الضحكة ولحظة الوسن وقهوة الصباح،.. ولو انت لم تذبل قبل مجيء موسم القطاف!..

* ايها الناس، يا معاشر المثقفين والشعراء والعارفين والفلسفه.. هل سيقضمونا هذا الجراد الاسود واحداً واحداً.

* لا عليك.. صديقنا النبيل، ومن ذا غيرك يوصف بالنبل والنقاء؟.
سألتو عليك ما طلبه مني في سفرتنا الأخيرة ونحن نقطع جنائن أصفهان وسفوحها
ونغازل أشجارها ونسافر في نقائصها كنسائم يربطه موعد بعد العودة، بالرحيل..
كنت غريباً وأنت تلح عليَّ أن أقرأ (لامية المتنبي) ل تستفرق كما أنت دائماً، في تخومها
الفلسفية وحدودها المعرفية وتبحر في تأويلك التي جمعتها عبر سنين الغربة المجففة
والانتظار.

((نعم المشرفة والعالي وقتلنا المذون بلا قتال
ونرتبط بسوابق مقربات وما ينجين من خوب الليالي
نصيبك في منامك من حبيب))

أما الأسئلة التي يتبعها المثقفون من بين وسائلهم بحثاً عن سدنة هذا التراجع والدناء واللاجدو.. فأولها:-

- هل لأنك الطموح والمثقف والمميز والحافظ والحربيص؟
- أم لأنك الجاد والفاعل والمعتقد بالأمل والمهووس بالثقافة العراقية والمؤمن بالكلمة؟.

- أم لأنك المستشار واللبق والمسؤول الفارق والعصامي العتيد..؟
 - هل لأنك النبيل السمح الذي لم يزاحم أحد ولم يكن له خصم سوى من يكرهون البلاء؟
 - أم لأن في الأفق تamasigh وأقزام وأرباع رجال يريدون مساحة حقيقة بزوالك عن المشهد؟!
 - وهل يحق لأحد أن يبرئ القتلة وتجار الحرب والاجراء والدخلاء.. من موتك المفاجيء المفجع؟
- * خسرناك يا أبا إلياس.. خسرتك الثقافة العراقية ومؤسساتها ولكنك الراوح الأكيد.. سلاماً صديقنا الكبير..
- إيها الشفيف الدافء المميز الهادئ الممتلىء..
- إنه الحسد يا صاحبي والقمعاء والهزيمة، ومثلك يحسدُ الحاسدون، ومثلك ينتصرُ ويحلق حياً وميتاً في نشيد سماوي يليق بالأنقياء..
- وداعاً أبا إلياس..
- ولتقبل هذه الإضمامات المتواضعة من ثلاثة ما زالوا يعتقدون أن ثمة بقايا وفاء.

متصوف خارج الأديان

د. عبد الجبار الرفاعي

تعرفت على المرحوم كامل في العام ٢٠٠٤ في بغداد، بعد عودتي إلى العراق، من خلال الصديق هشام داود، وكانت قبل عشر سنوات تحت اسم كامل في هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) وبعض النصوص المنشورة في (أبواب) قادني الفضول المعرفي لقراءة تلك النصوص المضادة بتوقيعه، فبهرتني بياته والرؤيا الشاملة التي تتسع لها مفهوماته وافكاره.

ومنذ اللقاء الأول وجدت نفسي قريباً من شخصية كامل شياع الدافئة، الحميمية، المتأملة، العميقية، الحكيمية، وألقيت مشاعري لاتكتف عن الانجداب اليه والتواصل معه على الدوام، وكانت أتساءل: ما الذي يجعلني تواقاً إلى هذا الإنسان، ولماذا كل هذا الزخم العاطفي الذي يقودني إليه كلما ابتعدنا جغرافياً، أو غرقنا في لجة المشاغل ومتطلبات العمل؟

بالرغم من إني عشت في عدة مناطق، وزاملت مختلف الناس في دراستي واعمالي ووظيفي، غير أنني قلماً عثرت على إنسان مفرط في إنسانيته، ويجسد رؤيته للحياة وسلوكه كل ما قرأته في مقولات التصوف الفلسفية مثل كامل. كنت أحسب أن أنموذج الإنسان الذي ينشده ابن عربي في (فصول الحكم) وجلال الدين الرومي في (المثنوي) هو أنموذج مثالي متعال على الزمان والمكان، غير بشري، حتى عاشرت كاملاً فعثرت على الكثير من خصائص الإنسان لديه.

لم تدهشني مناقبه وAxلقيات ومعنويات انسان أدمى في حياته الارتياض الروحي، وغرق في الطقوس، واعتكف بعيداً عن ضجيج الحياة، لتأديب نفسه وتنمية ضميره ومعنوياته، مثلما يفعل المرتاضون من المتصوفة والعرفاء والرهبان، لكن فوجئت حين عثرت على انسان لا تعنيه الطقوس، ولم يرهق نفسه ويذهب بدنـه في الارتياض الروحي، ولم يعتزل في صومعته، الا انه طوى مدارج السالكين وارتقاـ الى مقامات متسامية في قوس الصعود (حسب العرفاء) من دون أن يترسم ذلك الدرب، عندها ادركت ان التجارب المعنوية تتعدد وتتنوع بتتنوع الأشخاص، ولا تختصر في نمط واحد، كما تحكي ذلك لنا سيرة القديسين في الحياة.

ربما يعرض المرحوم لو كان حياً أو يعرض بعض رفاقه، على مقاربتي الروحية لشخصيته، ذلك ان التجارب الروحية حدودها الاديرة والصوماع والمعابد، كما يحسب الالاهوتيون، وإن كان ما يقوله العرفاء ليتطابق مع ما يراه الالاهوتيون اذ تغدو الحياة لديهم ميداناً رحباً يتسع لظهور وتطور أعمق التجارب المعنوية. وهو الموضوع المتكرر في حلقاتنا النقاشية العفوية انا والمرحوم كامل، فقد كان يود ان نتحدث في الأديان ورهانات العصر، وفلسفة الدين والالاهوت الجديد، وضرورة توظيف مكاسب العلوم والمعرفة الحديثة في دراسة الأديان وتجلياتها في الاجتماع البشري. وكان يرددني بمطالعاته في هذا المجال واعجابه بكتابات الفيلسوف الإيطالي (جياني فاتيمو) ويشيد بأراءه الحرة الجريئة في فلسفة الدين وقضايا الالاهوت، ويشدد على ضرورة تعريب مثل هذه الآثار ونشرها. وكنا نتفق على ان اصلاح الفكر الديني واعادة بناء علم الكلام هو منطلق كل مسعى للاطلاع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي والتعليمي في بلادنا، فان الدين هو الفاعل الأهم في مجتمعاتنا، وهو المحرك الأبدى في ماضينا وحاضرنا.

وكان يطمح لخلق مبادرات عملية في هذا المضمار، وعندما اقتربت عليه اصدار مركز دراسات فلسفة الدين لسلسلة كتب تشيع (ثقافة التسامح) وتستدعي ما هو مضر

ومسكت عنـه في جوهر الأديان، أصر على أن تدعم وزارة الثقافة هذه المبادرة، وحمل هذا المقترـح إلى وزير الثقافة وقتئـذ الصديق مفـيد الجزايري، الذي تحـمـسـ لـلـمـشـرـوعـ، وـبـاـدرـ بـتـخـصـيـصـ الدـعـمـ الـمـنـاسـبـ لهـ، وأـصـدـرـنـاـ مـعـاـ اـثـنـيـ عـشـرـ كـتـابـاـ تـعـالـجـ قـضاـياـ العـيشـ سـوـيـاـ، وـالـحـوارـ بـيـنـ الـأـدـيـانـ وـالـثـقـافـاتـ، وـارـسـاءـ قـيمـ الـاـخـلـافـ وـاحـتـرـامـ الـآـخـرـ، وـالـاسـتـيـعـابـ النـقـديـ لـلـتـرـاثـ وـالـمـعـارـفـ الـحـدـيثـةـ، وـتـرـسيـخـ الـعـقـلـيـةـ الـحـرـةـ الـمـنـفـتـحةـ وـتـجاـوزـ السـكـونـيـةـ الـمـغلـقةـ. فيـ المـدةـ الـتـيـ أـمـضـيـنـاـهاـ مـعـاـ فـيـ وزـارـةـ الـثـقـافـةـ ظـلـ كـامـلـ مـتـفـانـيـاـ فـيـ عـمـلـهـ طـيـلـةـ نـهـارـاتـ بـغـدـادـ الـقـاسـيـةـ الـحـرـارـةـ، وـغـالـبـاـ ماـ كـانـ يـخـرـجـ مـنـ الـوـزـارـةـ بـعـدـ حلـولـ الـلـيلـ، حـينـماـ تـتـعـذـرـ الـحـرـكـةـ، عـنـدـ فـرـضـ حـظـرـ التـجـوالـ، وـمـعـ انـهـاـكـهـ بـمـهـامـهـ الـوـظـيفـيـةـ، وـمـسـكـهـ لأـهـمـ الـمـلـفـاتـ، وـادـارـةـ وـتـوجـيهـ الـأـنـشـطـةـ وـالـفـعـالـيـاتـ، فـيـ ظـرـوفـ أـمـنـيـةـ بـالـغـةـ الـخـطـورـةـ، وـأـوـضـاعـ اـسـتـثـنـائـيـةـ قـاهـرـةـ، تـبـعـثـ الـاحـبـاطـ وـتـعـزـزـ الشـعـورـ بـالـلـاجـدـوـيـ وـالـخـيـبـةـ لـدـىـ مـعـظـمـ الـمـوـظـفـينـ فـيـ دـوـائـرـ الـدـوـلـةـ اوـ الـمـؤـسـسـاتـ الـخـاصـةـ، لـكـنـهـ ظـلـ يـسـعـىـ باـسـتـمـارـ لـصـيـاغـةـ اـمـالـ جـمـيـلـةـ لـمـسـتـقـبـلـ الـعـرـاقـ وـابـتكـارـ عـالـمـ مـشـبـعـ بـالـاحـلـامـ وـالـرـؤـىـ الـمـتـفـاثـلـةـ لـمـاـ يـمـكـنـ اـنـجـازـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـظـرـوفـ، مـمـاـ يـدـعـوـ الـمـحـيطـيـنـ بـهـ إـلـىـ الـمـزـيدـ مـنـ الـثـقـةـ وـالـطـمـأنـيـةـ بـمـسـتـقـبـلـ الـبـلـدـ وـحـاضـرـهـ. وـكـنـتـ فـيـ كـلـ مـرـةـ اـشـعـرـ بـالـاخـتـنـاقـ، وـانـسـدـادـ الـاـفـاقـ، وـالـقـلـقـ عـلـىـ مـصـيرـ الـعـرـاقـ، يـخـلـصـنـيـ مـنـ تـلـكـ الـمـرـارـاتـ، وـاتـقـلـبـ عـلـىـ قـلـقـيـ بـأـفـكـارـ الـهـادـيـةـ، وـاستـشـرـافـهـ لـلـمـلـاـتـ، وـصـبـرـهـ وـجـلـدـهـ وـتـفـانـيـهـ الـذـيـ يـبـحـرـ بـوـاسـطـتـهـ نـحـوـ شـواـطـيـهـ الـأـمـانـ.

لاـيـتـحدـثـ كـامـلـ شـيـاعـ، وـهـوـ مـنـ يـتـقـنـونـ فـنـ الـاصـفـاءـ لـمـدـحـهـمـ وـحـينـماـ تـدـعـوهـ لـلـكـلامـ تـرـاهـ يـفـيـضـ رـقـةـ وـدـفـتـأـ، وـيـطـرـحـ وـجـهـاتـ نـظـرـهـ عـلـىـ شـكـلـ مـقـرـحـاتـ وـرـاءـهـ كـفـرـضـيـاتـ مـحـتـملـةـ، مـعـ وـفـرـةـ مـاـ يـسـوـقـهـ مـنـ تـفـسـيرـاتـ وـتـوـضـيـحـاتـ وـبـرـاهـيـنـ عـلـيـهـاـ، وـعـادـةـ مـاـ يـبـدـيـ اـعـجـابـهـ بـمـاـ تـقـولـهـ، وـاـنـ كـنـتـ تـتـقـاطـعـ وـتـخـتـلـفـ مـعـ رـأـيـهـ، تـجـدـ نـفـسـكـ مـرـغـمـاـ عـلـىـ تـبـنيـ وـجـهـهـ نـظـرـهـ فـيـ خـاتـمـ الـمـطـافـ. وـقـلـمـاـ تـحـضـرـ ذـاتـهـ فـيـ اـحـادـيـثـهـ. وـعـنـدـماـ يـتـعـرـضـ لـلـغـبـنـ وـالـاجـحـافـ مـنـ بـعـضـ الـاـشـخـاـصـ كـانـ لـسـانـهـ يـتـعـطـفـ عـنـ ذـكـرـ مـنـ آـذـاـهـ اوـ ظـلـمـهـ، وـلـاـيـبـوحـ بـظـلـامـتـهـ

وتعسف الغير بحقوقه، انه يعمل بحقوقه. انه يعمل بصمت، ويتغافل عن العواائق والعقبات الموضوعة في طريقه وكأنها لا تعنيه.

لقد تعلمت من كامل شياع، دروسا في المواطننة كرست انتمائي للعراق، مثلمما تعلمت منه المثابرة على الانجاز، والانهماك في العمل، وافتعال الامال والاحلام، ذلك ان الحياة من دون حلم جميل لاتطاق، واستلهمت روحه المرحة الايجابية التي لاتتصفي لصخب الانفجارات، ولا تعطلها شتى التداعيات والاختلالات عن المضي حتى النهايات، ولا تهرب او تستسلم مهما كان حجم المتاعب والأوجاع والانهيارات، وتصر على حشد جميع الطاقات من أجل تحرير مستقبلنا من ماضينا وتحرير ماضينا من مستقبلنا، حسب تعبيره.

متأملأ حالة العراق الراهنة، أجدني أقرب على رأي من يعتبر ان المفاجآت تأتي من الماضي لا من المستقبل. والماضي الذي اقصده هو الذاكرة الجمعية حين تنقلب على نفسها فتكون سبباً للفرقة والتنازع ومسوغاً للانفلاق على الذات والريبة بالآخر. هذا ما صرنا نلمسه في العراق المنجرف بتيار اللاوعي السابع فوق حركة التاريخ وأحواله المتقلبة، محرباً ولاءات "طبيعية" تستثمرها أحزاب وحركات وتكلات سياسية محولة التضامن الى ارضية للنزاع. ولئن صح ارجاع الامر الى اراده قوة وهيمنة منتها الحاضر وحده، فإنه ليصح برأيي النظر الى معنى صراع الارادات الذي نحن بصدده مجردأ من ذيول الولاءات "الطبيعية" الطائفية منها والعرقية والمناطقية التي توحد في اطارها الأفراد كأعضاء في جماعات متمايزة الخصائص ومتنافرة الغايات.

ولأن الماضي المستعاد لايساعدنا على بناء أمّة حديثة طالما جعل من العراق الوطن والتاريخ والشعب، ضحيته الاولى، ويفعل فعلها فيه ليعيقه عن بلوغ حالة نظام جديد مستند على اجماع أشمل، ومطمئن لمصالح أعم، ونمازع الى احداث قطيعة أعمق ليس فقط مع فكرة الحزب الواحد والقائد المخلص والرسالة الخالدة، بل مع ارثنا التقييل من الفكر الاستبدادي المترافق من عصور غابرة. في اثارتها للفتنة والبلبلة تعادل الذاكرة نسيان

التاريخ، لهذا، فلا ذاكرة الجلاد الناكر لمسؤوليته، ولا ذاكرة الضحية الناطقة بمظلوميتها تعيننا على تلمس الحقيقة الازمة لتأسيس اجتماع مختلف يحلو لنا وصفه بالديمقراطية ونراهن عليه لدفع الأمة للتحلّق بالأخلاق المدنية الليبرالية. وهذا برأيي لا يقتصر على العراق وحده لأنّه ديدن ما يسمى بسياسة الذاكرة التي فتحت ابواب الأسئلة على الدعوات التحررية الانسانوية، وأشارت، في الوقت نفسه، المآذق امام أي تحرر فعلي. اننا كدعاة قضية عامة اسمها العراق، اذ نلاحظ، بأسى شديد، كم تخذلنا الذاكرة المتشظية الميسّرة الى ابعد الحدود، لا نستطيع أن نسقط الذاكرة من حساب تجربتنا الحية. ولو فعلنا ذلك لحرمنا انفسنا من خزین تجارب ماضية تدعونا للتماهي معها من وراء ميلنا الحداثي الطاغي، وتعزز فيها قيمة الوعي بالمستقبل، وتتفتح فيها روح الامل بما لم يتحقق بعد حين نصنع مسالك مفتوحة بين الذي أتى والذي لم يأتي بعد، وبين ما خبرناه وما لم نخبره بعد، نعيد للانسان العراقي حضوره في الزمن، فتحرره من التسلیم الأعمى بالقدر والمحاکاة السطحية للماضي. متى ستحل تلك الامکانية؟ من سيطرقها؟

اغتيال كامل شياع أو خفته انتهاك الوجود

فالح عبد الجبار

على الرغم من أنَّ أخبار القتل والذبح والخطف لا تنتهي، كان اغتيال كامل شياع أكثر من صدمة. لا يستطيع تخيل جثة هذا الكائن الحي والحيي، الذي يمشي على استحياء، ويهمس في استحياء، ويكتب في استحياء. لا يستطيع أيضاً ان تخيله في مواجهة القاتلة القادمين بسيارتين اعتضداً طريق سيارته في اتوستراد محمد القاسم ببغداد ليشهدوا عليه مسدسات بковاتم صوت.

لعل هنديات مرت راوده فيها أمل بأن ثمة اختطافا قد ينتهي بقدية وعوده، تطول او تقصير. لعل املا آخر راوده لجزء من ثانية بان ثمة التباسا او سوء فهم، وان المسلمين المجهولين سينبسوون بكلمة، تفصح عن جلية هذا اللبس الملغز، او هذا الابهام الفاتك، او لعله بوغت بمشروع القتل وادرك انها النهاية. هي ثوان معدودات مرت قبل ان تنطفيء اضواء الوعي، ويحل العدم الابدي. لقد حمل كل هذه اللحظات معه.

وليس لنا ان نعرف. كل ما يتمناه الصديق المحب ان يكون قد عاش اجزاء الثنائي
المرعية تلك بأقل ألم ممكن، وباكيبر قدر ممك من التمنيات المطمئنة. نعرف انهما
امانى فارغة شأن امانى جيلنا وجيل كامل بمجتمع حضاري، حلم المثقفين البايسين من
امثالنا بجمهورية الفضيلة الافلاطونية التي استحالت جمهورية وضوء بدماء الجثث.
«نصحته ان يغادر»، تلك هي العبارة الاولى التي يبادرك بها كل الاصدقاء، من باب
الحسنة على الخسارة غالبا، او من باب التحاذق على معرفة الغيب. لكن ما قيمة الكلمات

ازاء وجود الكائن؟ هذا ايضا من باب احياء امل كاذب: لو انصت الى توجساتنا! لو انه رحل.

ليست هذه هي الامال الزائفة الوحيدة التي نرعاها نحن الآن، كما رعاها كامل من قبل. اكبر هذه الامال الكاذبة الاعتقاد بأن الدولة راع للثقافة، والوهم الاكبر الاعتقاد بأن الدولة العراقية التوتاليتارية القديمة، والليبرالية الطائفية الجديدة، يمكن ان تقوم بهذا الدور.

في هذا السياق يربع المتزلجون، ومزورو الشهادات، في هذه الحمى يفوز البارعون في التعلق، وبوس اللحم، ومسح الجوخ. كيف يمكن لثقف مثله يحمل في ذهنه صبغات الماركسية بزوال السحر عن العالم ان يعيش وسط عالم يستمرى العيش في السحر. ويعيد توليده بواسائل الحداثة: تلفزيون وانترنت. وكيف يتسى لثقف منفتح على منتجات ما بعد الحداثة، فلسفه ونقداً، ان يحتمل العيش مع جهلة ما قبل الحداثة . لا افهم سر تشبيه بهذا الوهم، وهمنا جميعاً. اعلم انه كان ذا طبيعة مطواة، لينة تكاد تبدو امتنلاً، في الدراسة والبحث، كما في السجال والنقاش .

واعرف انه كان يرعى الامال الكبيرة، ويرعى الريبة فيها في آن. من هنا ميله احياناً الى الصمت، والابتسام، والتتممة المرتبكة. كان يعرف مزالق «السرديات الكبرى»، اي النظريات الحديثة التي تدعى معرفة الماضي السحق، والاتي الخبيء بيقين مقلقاً . ما عساه ان يقول عن وده «السرديات الكبرى» التقليدية، التي تحترك بقبضة من حديد تأويل ماضينا، ومستقبلنا، مثلما تكم بمغالب فولاذية في مصائرنا الراهنة. وكان، وهو الحيي، يجمع شغفه في المعرفة، بأمله الصامت في ترك خدش على جلد الجهالة العراقية المستشرية ، من رأسها حتى اخمص قدميها، واكتشف الهول: هذا الجلد مقدود من جلاميد. هل انتاج كاماً يوتوبيا خاصة به؟ ربما. لقد كتب اطروحته في الفلسفة، لدرجة الماجستير، عن اليوتوبيا (بالإنكليزية) . كان يعرف منشاً اليوتوبيا في العلوم والفلسفات

الحديثة بجلاء، وما اتسع له الوقت ليكتب في اليوتوبية الاصولية القاتلة التي ترعى الاستهانة بالوجود البشري وترفعه الى مصاف فضيلة قصوى. ثمة تأويلاً عدداً لدعاعي اغتياله، لعلها صحيحة جميماً. قتلواه لأنه الماركسي المنفتح، المستمع. ولعلهم قتلواه في مجرى التنافس على مقاعد المستشارين، المرشحون لتنفيذ القتل كثراً: بعضيون سابقون، اصوليون من كل شاكلة، ميليشيات حاقدة، مafيات ماجورة، موظفون طامعون؟ من يدرى. فالعراق اليوم مزرعة لاستنبات القتلة من كل شاكلة، مثلاً هو آلية ضخمة لتمزيق كل ما هو عقلي ونافع . وكامل شیاع لم يكمل عمله. كان أقل مثقفي جيله كتابة، لأنه كان اكثراً قراءة. بل ان انتاجه الثقافي تقلص يوم عاد الى هذا البلد المنكود بالحرب والاحتلال. لعله اراد ان يعيش الثقافة بطوباويّة نادرة، ومع ذلك بقيينا ننتظر ان ينجز كتابه الأول، او ان يترجم اطروحته في الطوباويّة. قطعت كواتم الصوت الجبانة عليه صبوت القول. سدد القتلة النار الى رأسه، الى موطن التفكير والتخيل، والحلم والامل. لعل الرصاصات الأولى سحقت تلك الحجيرات العامرة بقراءاته في الفلسفة، ولعل الثانية محققت حجيرات الذاكرة الأسرية حيث زوجته البلجيكية وابنه البكر، ولعل الثالثة ازالت موقع الذاكرة عن الموسيقى ووجوه الاصدقاء.

بأي طيش وغباء ازالت تلك الرصاصات القاتلة كل هذا الثراء؟ واليوم، في هذه اللحظة بعد ان مرت عليه ثلاثة ليال وهو راقد في العدم الابدي، هناك في الشري حيث تسود اللامبالاة التامة بجمال الكائن البشري، عقلاً وفكراً، لا يجد المرء من الكلمات ما يكفي لوصف هذه الفاجعة.

ال بهذه الأمة البائسة التي ترعى حق انتهاك الوجود بهذه الخفة.

فجيعة مؤلمة لكل المثقفين العراقيين

سيّار الجميل

صعقني خبر مصرعك الدامي ايها الصديق العزيز كامل هشیاع .. واهتز لاغتيالك الأثم كل المشهد الثقافي العراقي .. وبكى عليك كل من عرفك عن قرب .. وعرف مزاياك العراقية الأصيلة لم تكن مثقفا ملتزما ومنظما حسب ، بل كنت انسانا عراقيا طيبا غاية الطيبة .. يتلمس سجاياك الكريمة كل من عرفك ورأك ، بل وتداول اسمك كل المثقفين العراقيين .. كنت اميينا على موقعك الثقافي ببغداد منذ سنوات وانت تعمل ليل نهار في خط النار من اجل العراق ..

ان الحزن العارم على رحيلك الذي اراده لك المجرمون .. هو رسالة مؤلمة تخبرنا انك لم تكن مستشارا في وزارة يسمونها وزارة الثقافة ، بل كنت مثقفا اصيلا ، وانسانا قلما يوجد الزمن بمثله .. لقد بكتك بحرقة بالغة لأنني عرفتك ، وكنت سعيدا جدا بمعرفتك .. وجدت فيك وانا اجالسك طعم العراق ، وروح العراق ، وقيم العراق ، وشموخ العراق.. كنت تصفي برفقة الاخت العزيزة ميسون الدملوجي الى محاضرتى في " بنية الثقافة العراقية " قبل قرابة ثلاثة سنوات ولم تفارقك ابتسامة المحب العاشق لثقافة العراق المتعددة .. ومن يعشق ثقافة العراق ، يلتصق بتراب العراق ، وماء العراق ، وهواء العراق .. وكانت معك جنبا الى جنب على مائدة عشاء ، وانت تحدثني عن متغيرات ثقافة العراق وما يمكن عمله من اجل مستقبل اجيال العراق الجديدة .. كنت تحدثني عن المتواشين الذين يريدون قتل ثقافة العراق ، ومحو حداثة العراق ، وهتك كل ابداعات العراق

بطقوسهم البالية ومهرجاناتهم المضحكة .. كنت تشتكي لي من مكابدات تعانيها وانت في وزارة الثقافة وعلى رأسها " وزير " متخلف لا يعرف معنى " ثقافة "

كنت تتنقل لي مشهد العراق المز ، والالم يعتصرك لما آل اليه وضع العراق .. وعندما قلت لك : اني اخاف عليك من كل هذه الامواج اللعينة التي طفت كالجراد على كل الحياة .. ابتسمت ، وقلت : لقد اخترت العراق ، ولن ارحل منه ابدا ، وسأبقى التصق بترابه حيا او ميتا! بقيت تراسلني .. بقيت تكتب لي واكتب اليك .. بقيت تسألني وأسألك .. تجيبني واجبيك .. تحدثني واحادثك .. تبلغني سلام الاصدقاء واقرئهم وأياك كل السلام .. كم ناشدتني ان اكتب لك مقالا او خطابا لنشره ، وكم طلبت مني ان ازور العراق؟ لقد خسرناك يا اطيب الاصدقاء ، وافتقدك العراق ، ورحت مغادرًا قسراً ميدان حياة العراق ، وهو في امس الحاجة اليك في بحر هذه الايام . قتلك الجناة القتلة في لحظة دموية بائسة على جسر محمد القاسم ببغداد ، وفرروا الى المجهول ليبكي عليهم كل المثقفين العراقيين في يوم مذهل ينبغي ان يمثل في ذاكرتهم كل انحدار العراق ومؤسسة هذا الزمن الغادر .. ان صوت المثقفين العراقيين لابد ان يعلو على كل الاصوات المنكرة والمرتزقة واللقيطة والخادرة والمنافقه والمتربدة التي لا تعرف الا الظلم الاسود ولا ترى العراق الا من خلال العواصف الهائجة ان صوت المثقفين العراقيين ليكن حرا وشجاعاً بوجه كل الصامتين من السياسيين المختلفين الذين لم يجدوا مكانا لهم الا في المنطقة الخضراء. ماذا جنى كامل شیاع بحق السماء كي يغتاله الغادرون ؟ ماذا فعلتم بقوافل الذين رحلوا من اجل العراق وهم احرار ابراء . حتى يقتل كامل شیاع ؟ كم وجدتك مثقفاً حقيقياً ، غزير المعلومات ، عميق الرؤية وانت تتوجل في الثقافة الانسانية ؟ كم وجدتك تتبارى معى في عشق الموسيقى العالمية ؟ كم وجدتك تهوى دجلة والفرات .. والنخلة وعنبر شامية المشخاب ؟ كم وجدتك رقيق الحاشية ، عذب اللفقات ، هادئ الطبع ، سريع البديهة ..

ساحر الكلمات ؟ كم وجدتك تقدميا تهوى الفكر المعاصر ، وتسمو بالحداثة على مختلف الجبهات؟ كم وجدتك نزيهاً نظيفاً وانت تسير على نهج من سبقك من المناضلين العراقيين واثقى الخطوات ؟ كم وجدتك انساناً حراً ت يريد العراق حرراً ومتطروراً وموحداً لا ينال منه الطغاة ، وان يكون شعبه فوق كل الشبهات ؟ كم وجدتك متواضعاً ، دائم البسمة ، تحلم بال العراقيين تزدهر اجيالهم بكل المستويات ؟ كم وجدتك اكبر من كل اولئك الجهلة الذين يتربعون على كل الاطياب وفوق كل الركامات ؟ كم وجدتك متغيراً .. تتقبل الافكار والاراء المختلفة وتؤمن بالديمقراطية والسلم والامن وقوى الانتاج بعد كل ما مضى من صراع الطبقات ؟

قتلوك لأنك اكبر منهم ، واطيب منهم ، واسخى منهم ، واشجع منهم .. وانهم لمنتهون حتما الى مزبلة التاريخ .. ان عداءهم للثقافة الحية والنهج القويم .. جعلهم لم يلجموا للغدر بك حسب ، بل لا قتراف جريمة غادرة بحق كل المثقفين العراقيين .. فقتلك هو قتل لكل المثقفين الحقيقيين ، من حيث يشعرون او لا يشعرون.. ولكن لن نسكت ابداً ، ولن يسكت صوت المثقف العراقي اينما كان في هذا الوجود سيبقى صامداً مع كلمته وخطابه و موقفه الخصم اللدود لـ كل اللقطاء والطفيليين والارهابيين وانصاف المتعلمين. ان دمك يا كامل سينير الدرب امام الاجيال العراقية القادمة ، ويعلمهم بأنه قد سفح من رجل مثقف ملتزم قبل ان يسفح من سياسي مناورة. ان نضالك في اعمق الغابة الموحشة سيبقى صفة بطولية ناصعة ، ورمزاً لعهد يتسلط فيه خيرة العراقيين، من دون ان يتحرك أي مسؤول من المسؤولين عن البلاد لعمل شيء حقيقي مضاد ازاء استفحال هذا الجحيم.

ان برقيات التعاطف وابداء الأسى لا تكفي ابداً ، فهي بمثابة اعتراف بالصمت القاتل على تصفية كل المثقفين العراقيين الرائعين . ان التمادي باخفاء الاسرار ، او التغطية

عليها، او التعتمد على المعلومات والتحقيقات والتستر على كل اوراق الجنائيات الفاضحة.. يبطن من ورائه خفايا سياسية نطالب بالكشف عنها عاجلا. ان المثقفين العراقيين لا يمكنهم ان ينتظروا التصفيات تناولهم الواحد بعد الاخر. انهم لا يقبلون ابدا ان يعبث ببعضهم بعد ان تم العبث والجريمة المنظمة بالأكاديميين والصحفيين العراقيين.

انني اناشد كل المثقفين العراقيين ان يقفوا صفا واحدا من اجل ابقاء كلمتهم ، واتساع خطابهم، وصلابة مواقفهم، انني اناشدهم بهذه المناسبة المؤلمة ، ومهما كانت اتجاهاتهم السياسية ، وميولهم الفكرية ، ونزعاتهم الایديولوجية ، ان يطالبوا الحكومة العراقية باتخاذ الاجراءات اللازمة ليس لحماية انفسهم ، بل بتنزع گل الاسلحة من ايادي العراقيين ، وحل كل عصابات المرتزقة ، وميليشيات الاحزاب ، والجيوش غير الرسمية ، وفرق الموت الارهابية وان يسري العمل بالقانون الصارم ضد كل القتلة وال مجرمين والعابثين والارهابيين، وكل عصابات الدمار والخراب .

وأخيرا ، دعونا نقف زمن حداد لمصرع صديقنا جمعيا الشهيد الاستاذ كامل شيئاً ، مستوحين من هذه المناسبة المؤلمة الدرس بأن ما يجري في العراق اليوم هو الخطر الذي سيأخذنا الى الدمار ، فهل نحن مدركون سوء المصير . سيبقى اسم كامل شيئاً ، محفورا في ذاكرتنا العراقية شعلة متقدة ورمزا وطنيا، وسنذكره دوما بطبيته وبساطته، بثقافته ومنتجاته، بأخلاقه ووفائه وحبه للعراق.

كامل شياع .. قنديل لا يطفئه الموت

شوقى عبدالأمير

بعد قليل من سمعي النبأ الفاجع الذى بلغنى هاتفياً من صديق كنتُ أنظر إلى كامل شياع على شاشة تلفزيون "الحرة - عراق" في ندوة مصورة عن "ثقافة الطفل" بحضور كل من الشاعر صادق الصانع والدكتور جمال العتابي ولكن الحديث عوضاً أن يذهب إلى المستقبل لأن الموضوع هو الطفولة إنسحب نحو الماضي وأدھى من ذلك نحو الماضي المعتم وأهواهه فصار المتحدثون وخاصة المحتفى به، صادق الصانع يتحدث كيف أن العراقي يتلقن الرعب والعنف ك التربية حتى من دون أن يشعر وكرد على هذه الملاحظة علق كامل شياع بابتسامته وهدوئه المعهود قائلاً بأن الأساسى يبقى بالنسبة لنا اليوم هو "حب الحياة وبناء الحياة ..".

جاء الردُّ كعادته صاعقاً فعندما كان يردد هذه الكلمات على الشاشة في شريط مسجل، كان كامل شياع قد سقط قتيلاً بكاتم صوت وسط بغداد.. لم تكن معه حراسة ولم يكن محاطاً بمسلحين ولا سيارات حماية ولا.. أي شيء مما اعتاد عليه الموظفون الكبار والمسؤولون في الدولة العراقية. وكان ذلك خياراً منه.. وأي خيار! لقد أخبرني بنفسه أنه لا يطيق مواكب الحماية ولا السير بين مسلحين، ربما كان يؤمن أن ابتسامته وروحه الطيبة وإراداته في الخير ستكون أقوى من كل الحمايات.. كان يؤمن بذلك بالتأكيد. ها هو الموت يرد عليه ويحضر قناعاته في وسط بغداد مؤكداً تحديه لكل مقولات التفاؤل والمحبة وإرادة الخير.. إنه الموت المحتل الأكبر للعراق اليوم.. معه يجب أن تعقد الاتفاقيات

والمفاوضات للانسحاب من العراق ...، وبوجهه يجب التصدي في كل منعطف وفي كل بيت وفي كل مؤسسة للقتلة المتبصين الذين لا يتورعون في إطلاق الرصاصية إلى صدور كل الأصوات العراقية المكتنزة بالمعرفة والحب والإصرار على العمل من أجل عراق أفضل، هذا الموت هو الذي يحتلنا وأن دخوله إلى العراق واحتلاله له أخذ أشكالاً عدّة منذ صدام وقبله ثم بعده، إختلفت الأقنعة وظللت صورته البشعة هي.. هي، وليس فترة حكم صدام إلا عصر احتلال الموت للعراق، هذا ما يجب أن يقوله المؤرخون لا الشعراء فحسب. هل نقول: "هذا قدرنا؟" لا أظن ذلك كافياً لأنها عبارة لا تحتوي على حفاوة ببسالة الروح وإرادة البذل. وإذا قلنا": سنواصل السير ولا عودة إلى وراء" فحسناً نفعل ولكن في ذلك أيضاً رومانسيّة أو حتى طفولة يسارية فقدت بريقها منذ عقود بعد أن قدمنا تحت رايتها الآلاف بعد الآلاف من الشهداء والأبراء دون جدوٍ وأصرُّ على القول، دون جدوٍ .. وعلى أية حال لقد سرقتها منا اليوم كل قوى الظلم والإرهاب في بلادنا والعالم.. إذن سيقول قائلاً: أنت ت يريد الصمت فالنسىان فالمحو.. هل ت يريد أن ترك دوره الأشياء تتوازى مع الدورة الدموية تتوقف إحداهما وتتمضي الأخرى هكذا مثل عتلة متوازنة يومية عفوية لا معنى ولا ماضٍ؟ وهنا لا يمكنني إلا أنأشعر بالخوف من ارتداء كهذا، هذه المرة لا يأتيوني الخوفُ من الموت العادي المعروف إنما يأتي من شكل آخر للموت، لعله الأخطر؛ إنه الموتُ في الحياة.. فأهرب من مثل هذه التداعيات أحاذِّ ذلك ولكن إلى أين؟ لأن السؤال سيرتد إليّ شاحضاً مثل رخامة الشاهدة التي يكتبون عليها الآن ربما وفي هذه اللحظات اسم كامل شيع وعمره وتاريخ ومكان ولادته.. السؤال الذي لا يسأل أحداً هو سؤالُ أحد كالموت يأتي فقط.. ما العمل؟ ماذا يفعل المثقفون؟ ..ماذا تملك هذه النخبة التي تحمل شعلة المعرفة والعلم وقد اختارت أن تعود إلى الأهل، إلى الأرض إلى هذه المسيرة التي انتظرتها عقوداً، مازا تملك أكثر من أن تضع يدها، لا دمها فقد طفت الدماء وفاضت ولا

حاجة لدم أكثر لأن بدأه السؤال، هذا السؤال بالذات في العراق يقودك مثل عكا ز يقود
أعمى إلى رصيف واحد هو الموت كفى ثم كفى لم أعد أطيق أن أكتب وداعاً.. تعجبت من
الوداع، وداع الأحبة، وداع الأصدقاء ولكنني وأنا أكتب أجدهني كتلك الأم التي كانت تصرخ
في بئر في أحد سجون صدام تسأل عن ابن قالوا لها أنه كان يرقد فيه .. ترى هل سنحيلُ
العراق إلى بئر كهذه؟ هذا النوع من الأسئلة لا يحتاج جواباً ونحن ندخل في صومعته ونبدأ
بالعيش في ثنائيه من دون أن ننسى ببنت شفة لأن الجواب هو الاجواب المضي بصمت
وبإصرار هنا لا هناك .. هنا مع الأهل وعلى أرض وتحت سماء العراق بعد نسيان كل
الأسئلة والأجوبة أي الدخول بإيمان وصبر وحب إلى مصهر البدء في بناء عراق جديد
لكن لكي ندخل هذا المصهر لابد في الأقل أن نكون مؤمنين بشيء أساسى هو أن ما يحدث
في العراق منذ خمس سنوات إنما هو بداية لعصر جديد مؤمن بالفرد العراقي وبالحياة
الحرّة الكريمة له.. إن إيماننا بهذه البداية هو الشرط الفيزيائى والميتافيزيائى لدخول هذا
المصهر. على أية حال كان كامل شياع مؤمناً بذلك تماماً، وكان إيمانه هادئاً عميقاً
وإصراه لا يتزعزع حتى في أحلك الظروف التي إجتازها العراق وقد عاشها يوماً بيوم..
رحل كامل شياع سقطت العلامة الفارقة من ملامح وزارة الثقافة العراقية التي شكلها
وجود هذا المستشار الذي لم يكن يستشير إلا نفسه وفي كل مرة كان يجيب بالإرادة نفسها
والثقة الكاملة بأنه لم يعد له وطن آخر ولا حلم آخر ولا منفى آخر غير العراق..

"من قارة إلى قارة"

فوق أرض واحدة

من ريح إلى ريح

تحت سماء واحدة
ومن مُدِيَة إلى مُدِيَة
في دِمٍ واحدٍ
عابرون .
كامل شيعَ أيها الحبيب وداعاً.

* الصباح، ع ٢٦، ١٤٧٢ آب ٢٠٠٨

كامل شياع..هاجس الهوية ومصباح ديوجين

لطفيه الدليمي

ليس رثاءً لأنّ وصيّد ومتقدّف متفرد، فقد كتب الآخرون مرثيات اتفق فيها محبوه وعارفوه على فداحة فقد وخسارة الثقافة العراقية المهددة من منظومات ومؤسسات ودول برحيل هذا الرجل الرصين العامل بصمت الحكماء وصبر المتفائلين وحلم التنويريين ونراة الراهنين..

كان الصديق الأشدُّ نبلاً والتزاماً وحياءً ومعرفة وإيغala في الحلم، وفي حوارتنا سواء في بغداد وأوروبا لم أكن أخفى عنه انه يحمل فكراً طوباوياً من زمن غير زماننا وهو يعمل وسط حشود الأضداد الذين يشحذون الكراهية والجشع ويواهبون بين مخلب الوحش وقناع التوافق وبين ظلمة الفكرة وشهوة التسلط. كان يقول لي (ذلك شأنٌ طبيعي في مثل فوضى بلاد محظلة ومزقة تعيد بناء نفسها، ولكنك حستنا فعلت بخروجك من البلاد أما عودتي أنا فهي خيار وجودي ومعرفي، اعلم ان الوطن لم يمنحك سوى عذابات متراوفة وفرص موت وشيكه ولكنني اخترت ان أمشي بين الرصاصتين والأخرى، لعلني أخف من جراح الوطن..)

ما هو واحد من ضحايا الحلم الثقافي والإنساني يسلّمها لوحشة رحيله الصاعق وخسارتنا الفادحة لأنه اختار الزمان الخطأ لتحقيق الحلم؟؟ أم لأن الأرض ما عادت تتسع لنراة الحالين؟؟

كامل شياع الذي ما راهن على مكاسب مادية او سلطوية كان يمثل لنا نحن أصدقائه حامل مصباح ديوجين الذي نبحث بواسطته عبر مرأيا النهار عن رجال يشبهونه او يقاربونه في الخصائص والزهد والنزاهة، ونحن ندرك حجم العتمات في نهارات الطائفية والقبلية والانتماءات الفرعية المتاخرة ونعرف ندرة الرجال المتجريين من الأحكام المسبقة والأهواء، بينما تحتشد الساحة بالأشخاص الذين يمارسون خطابا سياسيا مراوغا يجتر عذابات الضحية ويعيد تسويقها للحاضر والغد مخدرًا بها الجموع اليائسة التي يكرس ذلك الخطاب جهلها واستلابها وبؤسها المؤبد..

مشكلة كامل شياع ودبما مأثرته، أنه مزج بين المثقف المحايد العقلاني الناقد وأمانته العلمية وموضوعيته النادرة، وبين المثقف العضوي -المستشار العامل مع ادارة الحكم من جهة وهو الأكثر التصاقا برهانات الحلم الاجتماعي والإنساني من جهة أخرى فكان يرسم الرؤية الإستراتيجية للمؤسسة التي لا تتقبل خيارات الديمقراطية الثقافية بل تعرّض على الأنشطة التي قادها هذا الرجل وبيتها المؤتمر الأول للمثقفين العراقيين الذي رقدت مقررات لجانه ومقترنات ورشه في ادراج مكتب المستشار كامل شياع بسبب حظر وزراء المحاصصة نشرها في كتاب..

كان يخطط برؤية مستقبلية مفتوحة على آفاق معرفية وتجارب فكرية جديدة وكانوا يعملون بنزعات طائفية محكومة بالمحاصصة والنظرية الماضوية التي لا ترى ابعد من مصلحة الكتلة او الطائفة وظلماتها التاريخية وتعمل وبإصرار قاطع ضد جميع التوجهات المستقبلية للرجل وتعيق وتحبط اي مقترن عقلاني لمعالجة الواقع الثقافي وتطويره وعصرنته..

من جانب اخر كان كامل شياع مهوما بفكرة الهوية المحلية والهوية الثقافية، فلطالما حدثني عن جهده الشخصي لتعريف ابنه الوحيد الياس الذي ولد وعاش في بلجيكا على منابع وجذور الثقافة العربية وتنويعاتها وتجلياتها في الأدب والفن والعمارة وكان

يصحبه في رحلات الى سوريا واليمن ليطلعه ميدانيا على العناصر والثيمات التي تشكل جسم الثقافة وخصائصها وتلاؤينها

ليعرف ان والده العراقي ينتمي الى جماع هذا النتاج الفني والجمالي والفكري ولتنفتح بينهما مسارات للحوار والتواصل والمعرفة غير المشروطة بزمن ومكان محددين..

كان قدقرأ لي رسائل كتبها لابنه، رسائل شجية مفعمة بالعقلانية وعاطفة الأبوة الممزوجة بالمعارف المعاصرة وروح الصداقة والتفاهم بين جيلين مختلفين، كتبها لإدراكه خطورة الفراغ المفزع الذي يتربص بالفرد عندما يفتقر الى عناصر اساسية من هوية اجتماعية وثقافية تربطه بوطن وجماعة بشرية لها عاداتها وخصائصها واحلامها وأوجاعها المشتركة..

لم يذهب هذا الرجل الى التخوم كما كان يرى في مفهومه للنهاية المتضمنة في الحاضر على رأي جان بودريyar - بل اجتاز القضاء المستحيل وحيدا وحالما ومبتسما في حقول تجاربه اليوتوبية وسط الخراب، لأنه كان يعيش النهاية كل لحظة ويقول: (حين ندرك ذلك لا يعود هناك ما يستحق الانتظار، غير ان تسليم النفس للنهاية ليس استسلاما، إنه بداية السير نحو التخوم او بينها..).

مسدس حكام الصوت

علي الشوك

أخبرت ياسمين صديقتها شهزاد بأن خطيبها رياض العبيدي، الذي قدم من العراق إلى لندن مع وفد رسمي، سيلقي محاضرة في منتدى «وادي الرافدين»، عنوانها «حذلقات الفلسفة». وحضرتها على حضورها في صحبتها، لأنها تحب أن تعرفها بخطيبها. وأكدت لها بأنها قررت، هي وأمها، دعوتها مع رياض إلى عشاء في بيتهما، بعد المحاضرة. وألحت عليها بالحضور، لأنها تريد لها أن تكون في ناصرها لإقناع رياض بترك المستنقع العراقي، ليتسنى لها عقد قرانهما خارج العراق.

كان رياض العبيدي في منتصف الأربعين، ناحل الجسم بعض الشيء، وأميل إلى الطول، وتلوّح عليه مخايل ذكاء، وذا عينين زرقاويين شأن العديد من العبيديين. وكان يضع نظارات، وحليق الشاربين، وذا ابتسامة حبيبة لا تفارقها. وقد قدمه سكرتير منتدى «وادي الرافدين» بأنه مستشار في وزارة الثقافة العراقية، وهو متخصص في الفلسفة من جامعة لوفان البلجيكية، ويُلّم بأربع لغات، إلى جانب العربية، هي الإنكليزية، والفرنسية والإيطالية والفلمنكية.

عندما أعطي رياض المايكروفون، حيا الحضور بكلماتي «مساء الخير»، ثم قال فوراً: أرجو أن لا يخيب ظنكم في الفلسفة، كما يومئ إلى ذلك عنوان المحاضرة. لكنني مع ذلك

لن أعطيكم انطباعاً رائعاً عنها في كل الأحوال. الفلسفة مؤسسة فكرية جليلة الشأن، لكنها لا تخلو من تهويّمات فارغة ما أنزل الله بها من سلطان. وهي أفلحت في إعطاء انطباع عنها بأنّها فن الغموض والوعورة، هذا الغموض شيء مفتعل، يصطنعه الفلاسفة لكي يغطوا على جهلهم بالأفكار التي يطرحونها. وهذا يسري على أكبر الفلاسفة. ضحك المستمعون، وأرهقت الأسماع إلى المحاضر.

قال، بعد أن مسح نظاراته بقماشة تنظيف العدسات: كانت الفيلسوف الكبير، الذي ربما كان أكبر فيلسوف بعد أفلاطون وأرسطو، إن لم يكن ندأ لهما. اسمعوا ما قاله عن كتابه الشهير «نقد العقل المجرد» مترجمه إلى اللغة الإنكليزية: حاولت قراءته، بيد أنّني وجدته عصياً على الفهم تماماً، لأنّه كُتب باللغة السنسكريتية. ويقول شوبنهاور، وهو من كبار الفلاسفة الألمان، كما تعلمون: «إنَّ محاكاة كانت أصبحت بدعة. كان فختة أول من سار على الدرب، لكنه أعاد النظر في موقفه في ما بعد. وسار شيلانغ على هذا النهج. ثم فاقهما في ذلك جيش من الكتاب ممن يفتقرن إلى الذكاء والصدقية». ثم يقول شوبنهاور: «لكن أكثر هذه الكتابات وقاحة في اجتراح الهذيان، في لفق نسيج من الكلمات التافهة والجنونية، مما لا يُسمع إلا في بيمارستانات المجانين، ظهر أخيراً في كتابات هيغل». وضجت القاعة بالضحك . لكن رياض العبيدي استدرك قائلاً: «لا شك في أن هذا الكلام لا يخلو من حسد مهنة، لكنه لا يخلو من صحة أيضاً». ثم أنهى العبيدي محاضرته قائلاً: «والآن، إذا سألتموني من هو أحب الفلسفه إلي، لقلت إيمانويل كانت، على رغم انه كان أول مشرّع للغموض في الفلسفه!» وضجت القاعة بالتصفيق والضحك .

وقالت شهرزاد لصديقتها ياسمين: «آه، يا إلهي، ما أظرفه!». بعد انتهاء المحاضرة، تقدمت ياسمين من المنصة، فاستقبلتها رياض بالعناق.

ثم قادته من يده الى حيث تجلس شهرزاد، وعرّفته بها: ((رياض، أقدم لك صديقتي العزيزة، الدكتور (في الفيزياء) شهرزاد المقدادي (فمد إليها يده، وقال) : فرصة سعيدة، دكتورة. هل أنت ابنة الدكتور هشام المقدادي؟». «نعم». «أرجو أن تنقلي إليه إعجابي الجم بكلمته الجميلة عن الصفر». سأنقل إليه ذلك. في الشقة التي تقيم فيها ياسمين مع أمها وداد، قالت وداد لشهرزاد، بعد العناق: «أعدت لأجلك، يا عزيزتي شهرزاد، وجبة عراقية شعبية. هل يعجبك التشريب، حبيبتي؟». تسائلت شهرزاد: «التشريب؟ ما هو التشريب؟». «آه، أنا أنسى إنك ولدت في الغرب، وأمك لبنانية. فقالت شهرزاد: «للأسف، خالة، لم أسمع بالتشريب قبل الآن». «إنها وجبة سومرية، كما تعتقد ياسمين، تُعد من لحم الخراف بعظامه، والبصل غير المقطع، والحمص، واللaim المgef، وعصير الطماطم، أو من دونه. ويمكن إضافة البازنجان أيضاً. يُسكب ذلك كله بمরقه على أقران الخبز العراقي المقطعة، ويؤكل ثريداً». قالت شهرزاد: «يبدو لي أنه وجبة شهية. «انا واثقة انها ستعجبك. ثم قالت: «إنها فرصة سعيدة ان تشريفينا بحضورك الى بيتنا للمرة الأولى، ونحمد المصادفة، أو المناسبة، التي جاءت برياض الى لندن، ليتسنى لنا ان نعرفك بخطيب ياسمين. هل أعجبتك المحاضرة؟» « جداً ». «هذا فخر لنا ولرياض». ودار الحديث عن الفلسفة، التي أكدت شهرزاد انها كانت على تماس بها منذ صغرها، لتخصص صديقة أخيها بها.

وذكرت أن أول فيلسوف تعرفت إليه منذ تلك السنوات هو بيركلي، لأنه كان موضع اهتمام أبيها وأخيها المختصين في الرياضيات، لأن بيركلي كان يعتبر الرياضيين كفرة !

فضح مستمعوها. وازداد رياض إعجاباً بشهرزاد وارتياحاً إليها. واستطرد معها في الحديث عن الفلسفة والفيزياء، بحكم ارتباطهما ببعضها ارتباطاً وثيقاً (ميكانيك الكم، مثلاً، ومبدأ اللاحتمية). بعد هذا، أخذت وداد دفة الحديث، وقالت: «والآن، أرى أن ننتقل إلى موضوع رياض. سأشكوا همي الآن، وهوّ ابنتي ياسمين، إلى رياض في حضور صديقتها المقربة شهرزاد». ونظرت في عيني رياض «أنت لا تسمع بكاء ياسمين إلاّ عندما تلتقيان. أما أنا فأسمع نحيبها كل ليلة. نعم، كل ليلة. فyasmin تعتبر نفسها أرملة حتى قبل أن يتم قرانها برياين، لأن رياض محكوم عليه بالموت مع سبق الإصرار، من ألف جهة. هناك خطة لتصفية الكوادر التي تأتي بعد الوزير». الوزير، في أي وزارة، له حراسة قوية، ويسكن في المنطقة الخضراء. لذلك يبقى في مأمن من الخطط. أما الآخرون فلا يتمتعون بمثل هذه الحراسة المنيعة. لذلك يتهاونون الواحد بعد الآخر. ثم سألت رياض: «هل هذا صحيح، أم لا؟»؟ «صحيح». «طيب»، واصلت وداد كلامها «وأنا سأكون صريحة مع رياض، فليس هناك ما يدعوني إلى الصمت... في ضوء هذا يمكن اعتبار رياض ضيفاً عابراً عندنا، وعند أمه، وأحبائه، وفي هذه الدنيا. إنه بين المرصدتين، وينتظر دوره فقط، وهو لا يجهل ذلك، كما اعترف هو بنفسه. ولم يبق أحد لم يبصّره بهذه الأخطار.

كتنا، ولا نزال، نقول له: رياض، أترك العراق. لم يعد العمل فيه لأمثالك آمناً. اترك العراق، يا حبيبي، من أجل عيون أمك، وإخوتك، وخطيبتك، وأحبائك، ولا تجعلهم يحزنون عليك يوماً ما، ويبكونك. فهل ستتصفي الآن أيضاً؟ ثم وجهت كلامها إلى شهرزاد: «عفواً، حبيبتي شهرزاد، أرجو أن لا تكون كدرتك بهذا الكلام. قالت شهرزاد بارتباك: لا، حالة، ابداً، أنا لم أتقدر من هذا الكلام، الذي أقدر خطورته تماماً. إنه يبدو لي شيئاً يقف له شعر الرأس. لكنني لا أريد ان أصمّ أذني عن شيء يخص صديقتي العزيزة

ياسمين. لذا، أرجو ان تأخذوا حريتكم في الكلام في حضوري». «شكراً، حبيبي. قالت وداد «أنا وياسمين نأمل بأن يصفني رياض الى صوتك، الذي لا نشك في انه سيكون في ناصرنا... والآن، ما قولك، يا حبيبي رياض؟» ابتسם رياض بارتباك، ونزع نظارته، وأخذ ينظف عدستيها بقطعة قماش أخرجها من غلاف النظارات، وقال: هذا موضوع معقد... معقد جداً بالنسبة إلي، مع انه يبدو واضحاً وضوح الشمس بالنسبة إليكم جميعاً... أنا أحب العراق جيًّا يصعب تصوره. أنا أُعشق ناسه الأبراء، وأبكي لهم. تسبّبني النساء العراقيات الشعبيات بعباءاتهن المذهلة. النساء العراقيات الشعبيات يمزقن نيات قلبي بتحملهن كل هذه المأسى، وبراءاتهن الجميلة. إنهن لوحات أجمل من لوحات آنفر، ودينوار، وفان غوخ. أنتي أعبد بساطتهن، وبراءاتهن المذهلة. عندما أشق طريقي في سوق شعبي، أشعر أنني أسير بين أحب الناس إلى. هذا جنون، ربما. أنا كنت محروماً من هذا المشهد في أيام النظام السابق. والآن صار في وسعي أن أعيش معه... انعدام الأمان؟ انفجارات؟ اغتيالات؟ عمليات اختطاف؟ هذا كله صحيح. لكنه لم يُحُل بياني وبين الوجه البريء للعراق.قاطعته وداد، قائلة: لكن البلد، يا حبيبي رياض، في دمار مستمر، فماذا ترجو من عملك وسط هذا الحريق الشامل؟ ضحك رياض، وقال: «أنا لا أؤمن بالكليات. أنا أؤمن بالجزئيات. وربما يجعلني هذا الاعتقاد أتقى مع مفكري ما بعد الحادثة». فكرت شهزاد بكلام رياض بذهول: هذا الهيام الغريب بعباءات النساء الشعبيات، التي يفضلها على أجمل اللوحات في العالم، شيءٌ ظريف حقاً، لكن كيف يتحمل الفوضى، والأذى، والغيار الخانق، والأجواء المؤثثة، وانقطاع الكهرباء، والحواجز الإسمنتية المشوهة لنظر العاصمة، وفلتان الأمن، من أجل عباءات النساء الشعبيات؟ وماذا سيتبقى لياسمين المسكينة، غير هياها بعيونه الجميلة؟ وما هو موقعها عنده؟ هل

يفكر في همومها؟ هل يحبها؟ لكن لماذا وعدها بالزواج إذا لم يكن يحبها؟ والمهم، ما هي أهمية هذه الجزئيات أمام هذا الخراب؟ وكأن وداد قرأت ما دار في دخلة شهرزاد، فسألته: «ما هذه الجزئيات يا حبيبي رياض؟» قال: «انا أكون سعيداً عندما أقنع وكيل وزارة زميل بأن إقامة الشعائر الدينية، الندب على الإمام الحسين، في مقر الوزارة غير صحيح». أطلقت وداد زفرة، وقالت: «أوه، رياض، أنت تُضحك التكلى. البلد أعيد الى الوراء مئات السنين، طائفياً، وتخلفاً، ودماراً، وأنت تحاول إقناع موظف جاء به نظام المحاسبة الكريه، بأن من غير الصحيح إقامة الشعائر الدينية في مقر الوزارة». قال: «هل أتركه يقيم الشعائر في الوزارة؟» «نعم، أتركه، وعد الى جامعة لوفان وإلينا، لأنك لا تستطيع، انت وبضعة مخلصين من أمثالك، الوقوف في وجه هذا الطوفان الكاسح». قال: «نحن مختلف، يا عزيزتي وداد. أنا أعتقد ان العمل خطوة خطوة لا بد من أن تظهر ثماره في آخر المطاف». «وما قول عزيزتنا شهرزاد في هذا؟» فقالت شهرزاد: «أنا مع رأيك، خالة وداد، مئة في المئة». إلا أن رياض رد قائلاً: «أنا آسف، أناأشعر أنني انتهي الى العراق بكل وحله، وخرايه، والأمه، أكثر من انتهائي الى جمهور المحاصرة التي ألقيت فيها كلمة بطرة. أنا أريد ان أشارك ابناء وطني في القضاء على هذا الطاعون الذي حل به. ينبغي ان لا نترفع على أبناء وطننا ونتركهم يصارعون قدرهم وحدهم». «أنا، هل تريد ان تسحبني معك الى هذا الخراب؟» قالت ذلك ياسمين، وبكت. «نعم، ياسمين، إذا كنت تحبيني». وبكت من دون ان تجيئه.

بعد مضي أسبوع على هذا اللقاء، تلقت شهرزاد نداء تلفونياً من صديقتها ياسمين، تخبرها وهي تبكي وتشرق بكلامها، بأن رياض قُتل بمسدس كاتم للصوت من ملثمين

أوقفوا السيارة التي كانت تقله من الوزارة التي يعمل فيها، وهو في طريق عودته الى البيت الذي كانت أمه تنتظره فيه على الغداء .

فتساءلت شهرزاد: «ترى، هل كان رياض ينوي الانتحار؟»؟

* * كتبت هذه القصة بوحي من النهاية الفاجعة لحياة المثقف العراقي كامل شياع..

أيها الحلم الذهاب

جمال العتابي

الشهيد كامل شياع نمط من المثقفين لا خيار لديهم إلا الاشتغال بالكلمة والمعرفة والحوار. تجربته تلخص لنا عالماً من الانتماء الى هذا العالم ومحبيه، تجربة قدر لها أن تعيد صياغة معنى الثقافة لتصفو بها عن اليوميات، لم ينفصل كامل عن الواقع والانتماء اليه. الا ان التواصل عبر هذا الواقع له صلة كذلك بجماليات يحسها أو يخلقها هو بنفسه، أو يشارك فيها.

يجد في فمه للثقافة اكتشافاً للمعاني الإنسانية، عبر ما انتجته عقليته النيرة، فهو مخلص لعراقيته وانسانيته، وهذا ما جعله على الدوام منفتحاً على الحياة.

في فكر كامل أتسعت مساحات الجدل السياسي والفكري، وهو من القلة التي استطاعت الامساك بالخيط الذي يشد المفكر، المثقف، الأديب الى الأفق بجدارة اخلاقية ومعرفية، اختصر طريقه الى النضوج مبكراً. وسار الى الاستقلال الاسلوبى، بعمق فكري وصدق مع النفس، وحرارة في التعبير، ما جعل من حضور هذه المعطيات سبباً من اسباب ثراء هذا الانسان واصالته.

كامل شياع أتقن اشياء كثيرة في حياته، من بينها اصطياد الموزات والصداقات، يجد التعبير عنها بمقطوعات متوجهة وثرية وعميقة الأثر. في اعماله وكتاباته وتأثراه، التي جعل محورها اليمان بالتغيير والتنوير والتجدد.

أبا الياس: هل لي أن أقف في حضرة ترابك وطيبتك؟

لاتحدث عنك مثل أي ماضٍ.. اني اشك في ذلك!! فكيف تركناك ترحل عنا، وانت لم تعبر الخمسين الا بضع سنوات؟

مازلنا نستعيد طعم الأيام التي سافرنا فيها معاً، قبل شهر من رحيلك مع الاصدقاء فاضل ثامر ونوفل ابو رغيف.. كنت فيها حماماً تفيض طفولة ومرحاً وعنفواناً.. غنينا، ولعبنا، ولهوننا.. بفرح، كنا نعبر المسافات لاتتبعنا الاسماء سوى اوجهنا. كنت ت يريد ان تمضي بلا جناحين مسرعاً نحو الموت.

كامل.. في أي الاعوام لقيتك؟ لا اذكر اي الاعوام رأيت الوجه الباسم والعينين.. لا اذكر اين..

انك الان لا تعرف ان صمتاً يرش عيوني.. وانك مني، وانك كل السنين.. فأين أراك تراني، يا ايتها الحلم الذهاب..

شياع.. كان أرفع من يأسنا!

رشيد خيون

تضارب الرواية حول مصدر الرصاصات القاتلة التي استقرت في بدن الكاتب والباحث والمثقف كامل شياع ببغداد، أكادم صوت آخرس أم رشاش ناطق لا يخشى ولا يحذر شيئاً! مع أن الحدث ليس بالبعيد، ابن ساعته. ويبعدوا لأصحاب الروايات أغراضهم أيضاً، فتحوّل القتل إلى كاتم صوت يعني أن الحكومة قوية والأمن مستتب، وأن الشرطة ومن طرزاً على أكتافهم السيوف والتيجان، بدورات اليوم أو اليومن، هناك من يخافهم وبهابهم، وبالتالي لا داعي لصحوات عشائر أو من يُعين!

اغتيل كامل شياع وكان نفسه يتوقع الحدث! لكنه استمر متعالياً مع خوفه وقلقه، متحالياً على التهديدات التي ترده، وهو الإنسان المسالم إلى حد الضعف، بأمل أن تعاد للثقافة العراقية حظوتها بين ثقافات الأمم، محاولاً استثمار هوماش الديمقراطية لترميم هامش ثقافي ما. كانت به وبأمثاله تعرف أنها وزارة ثقافة، ويطمئن المثقفون إلى التعامل معها، ولا يعني من تكلست ذواتهم على الكراهية.

أتى العهد الجديد وأخذت الأنظار تصبو إلى محو آثار خراب السابقين، وما حل في جسد الثقافة العراقية، وإذا ينزع على مقعد وزارتها وإداراتها من لا ناقة له فيها ولا جمل، وأحقرت حقيبتها بين الكتل النيابية، في نظام المحاصصة الطائفية السيئ والمهين، حتى سمعنا أحد النواب يقولها بصلافة الجهل: إنها وزارة تافهة! وبمستوى ذلك الجهل تحولت إدارتها إلى مزايدات بعقائد الناس الدينية الشعبية، ليصبح اللاطائفي شياع خطراً وهدفاً مرصوداً على دواخل الوزارة نفسها.

من يعرف كامل شياع، شخصاً وثقافة، لا يستغرب قدرته على امتلاكه النزقين والمتوهمين بمجد ثقافي، بل تجده يتعامل بكل جمل، وهو الرقيق الكاتم لحزنه، مع الحوادث التي مرت عليه، وهو يعرف أن رفضه لاقحام المؤسسة الثقافية بشأن ليس من اختصاصها ولا من طباعها قد يؤدي به إلى الاغتيال، وبالفعل حصل ذلك، في أجواء لا يعرف الغادر إلا المغدور، ولا القاتل سوى المقتول. هناك سبب لا غيره جعل مثل كامل شياع يُضيف إلى صبره وهدوئه الموصوف به، وهو يتعامل مع خصماء الثقافة، أن للعراق حقاً، مع أن الرجل ليس من أصحاب المغامرات، ولا نفسه رخيصة عليه إلى هذا الحد، ولا هو من أهل الحمایات!

كان كاتباً وباحثاً مرموقاً، لا تنتهي من مقالاته إلا وتشعر بقيمتها، وبإضافتها شيئاً إليك. ومتواضعاً تواضع التراب للصديق والعدو. التقى يوماً يرافق وزير الثقافة، من غير المثقفين، وما أن صعد الوزير يُلقي كلمته حتى تبين، من هيئة وقوفه أمام المنبر، ومقدمة خطبته، والدفتر الأسود الذي فتحه، أن الرجل خطيب مسجد لا وزير ثقافة! عندها التفت لكامل شياع، وهو يخفي عينيه وراء نظارتيه خجلاً مما فيه الثقافة العراقية من بؤس الحال. قلت له: ما هذا يا كامل! قال: « جاءت هذه الخطبة بعد التاطيف والتحسين! وهناك في الوزارة كائنات شتى، ما هو أفعع، نتعامل بالحد الأدنى، نكتفي بطباعة كتاب ثقافي أو تكريم مثقف أصيل أو إقامة مهرجان بعنوان ثقافي، وإذا أردنا ذلك علينا الصبر على سماع مثل هذه الخطبة».

ليس كامل شياع من طلاب المال، والعودة إلى الأوطان الثانية، كعودة الآخرين، لشراء عقارات، وبناء شركات، ولا من ركاب الدرجات الأولى عند الإيفاد، ولا من أصحاب المظاهر، ولا من المسوغين للذات الدينية بمسائل الفقه والشرع ومن مكاتب الوزارة! وعندما اعترض على سخاء الإيفاد لمسؤولين في الوزارة، وهو معهم، بما لا يفسر إلا بالفساد! أجابه أحد المتلقيين بثوب الدين! يبدو أنك أصبحت إسلامياً لا يساريأ! ومعلوم أن الأمانة ليست من

اختصاص العقائد بل النفوس! وما هي الإدارة والمال بيد إسلاميين فأين الأمانة؟! حتى يُلغى عن كامل خلق شخصي رافقه حتى لحظة الغدر به!

حقاً جهدت عند سماع نبأ اغتيال كامل، أن أصبر النفس عنه بالبحث في الذاكرة، وأنا أعرفه منذ عشرين عاماً كاتباً وصديقاً، لعلّي أجد خطيئة أو ذنباً على مستوى الثقافة أو على المستوى الشخصي أخفف فيه من هول ما حل في النفس من مشاعر الحزن، لكنني لم أجدهما، لا تعصباً له، بل هي الحقيقة، التي يُشااطرني فيها بقية معارفه. لهذا كان وجوده، وهي مغامرته الكبرى، بارقة أمل لدى جمهور المثقفين في أن تستعيد الثقافة العراقية شيئاً من غابرها، وألا يحصل الانقطاع بينها وبين وزارتها. كان يتحدث بمستوى مغامرته عن انكساراته وأماله، وكم قيل له: أنت تحرث في ماء، وتتنفس في رماد! إلا أنه كان أرفع من يأسنا!

المسافة الكبيرة

عبد الزهرة زكي

في واحد من أكثر المعاني إفصاحاً وإشراقاً، يبرز معنى استشهاد كامل شياع بالطريقة التي استشهد بها وبالظرف الذي أغتيل فيه.

قاتل مجهول يتوارى خلف صمت رصاصاته الصامتة ومسدسه الكاتم. في مقابل الآف تجمهروا بأصواتهم العالية استنكاراً للجريمة، وعرفاناً بتأثير القتيل الشهيد. قاتل لا يعرف حتماً أي معنى عن ضحيته، في موازاة الآف المعاني التي عاش وأغتيل من أجلها كامل..

هذه المسافة الكبيرة الفاصلة بين جهل القاتل من جهة وبين معرفة الآلاف من جهة أخرى هي ذات المسافة ما بين كوابيس القتل الاعمى حين لا يعرف القاتل اي معنى لجريمه غير المعنى الأسود للقتل.. وبين معرفة الآلاف بعلم الملايين من العراقيين بنهاز آمن وليل سلام وحياة حبٌ وحرية وأطمئنان.

هذه المسافة الكبيرة الفاصلة هي ذات المسافة التي انحازها كامل شياع الى المعرفة، الى معنى أن يرکن الى العقل والى أعمق نداءاته الإنسانية، الى الحرية التي لا يستقيم من دونها حب وسلام وعقل.

لقد انحاز الشهيد الى الطبيعة الإنسانية الحقة، بينما رهن القاتل اراداته الى الشذوذ، إستلاب الحياة، كأثمن قيمة وأكثرها قداسة وتوقيراً ورفعة.

لن تكون هذه المقارنة عادلة في أي حال. لكن هذا هو اصطراع القيم وتصادمها دموياً، انحرافها عن تصريف الاختلافات بالحوار والجدل اللذين التزم بهما كامل شباب طيلة حياته أنساناً ومناضلاً ومثقفاً إلى تصريفها بالتناحر والقتل اللذين تورط بهما أعداء كامل شباب وخصوصه الدمويون أثناء سيرته في الحياة والنضال والثقافة، حتى اختصر القاتل كل أولئك الأعداء برصاصه صامتة من مسدس كاتم.

ثمة معنى آخر لا يقل فصاحة واشراقاً، عبرت عنه هذه العودة المتأسية والفخورة إلى نص الشهيد عن (العودة من المنفى). وبعد ساعات من إستشهاده تلقيت شخصياً كما تلقى أيضاً زملائي الكثير من الاتصالات الهاتفية والرسائل الإلكترونية التي تحيل جميعها! إلى هذا النص مؤكدة على أهمية إعادة نشره في (المدى)، حيث كان نشر للمرة الأولى.

كان المعنى يتاتي من قيمة استقبال القراء لنصوص الشهيد واحتفاظ هذه النصوص بأثرها الحي فيهم. وكان المعنى يتاتي أيضاً من أهمية اختيار الشهيد للعودة، وعقلانية الاختيار، الذي لا يتبدى اختياراً، كما يعبر النص بوضوح عن ذلك، قدر ما كان حركة طبيعية في سيرة ثقافية نضالية أكملت دائرياً بين الوطن والمنفى والوطن.

هل يشكل الرجوع إلى نصوص كانت صورة من صور استئناف الحياة بالنسبة للكاتب الراحل نفسه؟ أم هو صورة لسعينا نحن القراء الأحياء لدى الحياة مع الكاتب عبر نصوصه.

هذه هي وحدة من أعظم معجزات التأليف والكتابة، القدرة على تحدي الموت واحتراقه بالكلمات، بالأفكار، بالأبداع فيهما.

بهذا المعنى العظيم يتواصل كامل شياع معنا مثقفاً مبدعاً بالكتابة والسلوك فيما تتوال حياة الشهيد بصورة أخرى عبر تاريخ من النضال من أجل القيم الرفيعة، قيمنا في السلام والحب والعدل.

سلاماً كامل شياع.

وداعاً كاملاً!

مصطفى الكاظمي

هناك نوع من البشر تقترب منهم أكثر كلما اختلفت معهم، والشهيد كامل شيعان من هذا النوع. يتأنى ذلك من سعة أفقه وعمق ثقافته وإنسانية نظرته المشبعة بروحه العراقية، أولاً وأخيراً، فهو المثقف الذي تزخر ذهنيته بثقافة السلام والمدنية وبأحلام المواطن الحر الذي أراد للعراق صورته المشرقة برغم كل الصعاب.

التقينا في مناسبات عديدة، وكانت حواراتنا، على قصرها، تشبه البرقيات السريعة وكان يفهم إشاراتي ورؤوس أقلامي بفطنة الإنسان الحساس وذكاء المثقف المرهف عندما التقينا في مؤتمر المثقفين العراقيين الأول في بغداد عام ٢٠٠٥، بينما كان الصدام الطائفي في ذروة عماه وظلميته، كان كامل يتلقى اقتراحاتي وأفكارني بارتياح مشوب بالخوف وإن لم يخل من روح الدعاية عندما همس في أذني: استعد لتكون بين المهمشين !

وكان يعني ما يقول بشأن أصحاب المواقف التي لا تنسجم مع الطرحوت الثقافية أو السياسية أو الفكرية السائدة، في السر أو العلن. وإذا حمل كل منا فكرأ خاصاً به يختلف عن الآخر، فإن أسباب اقتراينا من بعض كانت أكثر من أسباب ابعادنا، حتى صار هذا الاختلاف مساحة لبلورة مشاريع وبرامج عديدة من بينها التداول والحلم

والتحضير لإقامة مشروع (متحف الذاكرة). كان يعجب من بعض ممارساتي غير المتوقعة (بالنسبة له) مثل تهريب المناضل الشيوعي الراحل الدكتور رحيم عجينة إلى إيران أيام حكم صدام.. فهذا يجعلني، حسب ظنه" الإسلامي الأحمر!"

كامل شياع هذا العراقي المخلص لنفسه ولوطنه، وجد في سقوط النظام السابق فرصته لطبي صفحة المنفى والتباسات الثقافة المغتربة والمقيمة وقرر أن يلتحق بالوطن مبكراً ليساهم، مع الآخرين، في وضع لسته الخاصة على لون العراق الجديد وأحلامه المستحيلة. وأنا أثقني نبأ استشهاده تداعت في خاطري لحظات تلكم اللقاءات والحوارات وقد اختلط فيها مشهد الجريمة الماثلة التي ارتكبها الظلاميون وبقايا الصداميين الذين ما زالوا لا يعرفون غير ثقافة كواتم الصوت التي اشتهروا بها وهم يصفون مناوئيهم بدم بارد وهذا ديدن القتلة العاديين.

بصمات القتلة تدل على أنهم من بقايا دولة كواتم الصوت وأقبية قصر النهاية وفاشيي الانقلابات المشبوهة التي خبرها العراقيون عقوداً. ماذا سنقول للسيدة زوجته؟ هل شجعناه على القدوم إلى وطنه ليلقى حتفه في هذه الطريقة الهمجية؟ وماذا سنقول لأهله ومحبيه وأصدقائه؟ وهل تكفي كلمات المواساة والتشبث بالصبر والسلوان؟ لقد فقد العراق واحداً من أرق أبنائه المخلصين وأكثرهم تواضعاً وإصراراً على العمل بلا ضجيج ولا حمایة خاصة مدججة بالأسلحة. وداعاً كامل شياع..

*الصباح ٢٦، ١٤٧٣ آب، ٢٠٠٨

كامل شياع..من ألد مناهضي ثقافة الخنوع!

سلام ابراهيم كبة

لا تحزني
واعلمي ان في تلك الساعة
من ظلمات الليل
نداء البحر كان يعلو بين الجموع
الامواج كانت تجرف كل الدموع
لن يموت الكادحون الشرد الجياع
والقادمون من اقصى البحار ينشدون
سبلخ شاطئ الحرية السعيد

تعرف كامل شياع على الثقافة منذ خطواته الاولى في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، وتعلم الميل اليها - ادبا وفنا ومعرفة عامة بمرور السنين، فقا لمناهج ثابتة ومت坦مية، وبحكم كون الفكر العلمي والمنهج المادي الجدي عميق في موضوعاته وانسانيته ووليد شرعى اصيل للثقافة، كما تعلم تذوق الثمار الثقافية المتنوعة، وتشرب بحبها حتى غدت بالنسبة اليه حاجة حقيقية، لا يستطيع تصور الحياة من دونها. نعم، صارت الثقافة الهواء الذي يتنفسه الشيوعيون وصار الوسط الثقافي بيئتهم التي ينشدون اليها ويتفاعلون معها، وصار الفعل الثقافي تقليدهم الجميل، الذي لا يستطيعون منه فكاكا. كان كامل شياع تلميذا ومعلما للفكر العلمي الذي يؤكّد ان اي تقدم في اي مجتمع، لا يتحقق الا بحضور الثقافة ومشاركتها الفاعلة، الا بانتشار المعارف بشتى صنوفها، والاقبال على العلوم وابحاثها، وعلى الآداب والفنون، وفتح الابواب امام تطور الوعي، وارتقاء الفكر.

التواضع الجم لكامل شياع اخجل مثقفي بلادي، كان متحدياً مصراً على التطوير والابداع، واسع المدارك، لم يقع فريسة العزلة الثقافية والتعالي والتكبر والتفلسف وهو يحتل مركزه الحكومي الحساس كمستشار في وزارة الثقافة، ولم تغب الشاشة والبسمة عنه في اعقد واحلك المواقف وهو يشغل عضوية هيئة تحرير مجلة الثقافة الجديدة، لانه ادرك ان هدف الثقافة هو نشر الفكر الخلاق والوعي المتيقظ وزرع الثقة لدى الآخرين لاستيعاب التجدد وايجاد قاعدة ثقافية تستوعب المجتمع بأسره، اي جعل الثقافة زادها خفيفاً يهضمه ابناء الشعب. من موقعه كمستشار في وزارة الثقافة لم يطلق كامل شياع الوعود ويفبرك الادعاءات ولم يلجم أسلوب التزويق البياني والزخرفة اللغوية، وبقيت غايته دقة التحليل للقضايا وصرامة النقد للطروحات وكشف العيوب الاجتماعية وفضح الانحرافات السياسية والفساد! لم تغره مغاناً وتغويه لذة السلطة، ولم يتخل عن حماسته المعهودة في مقارعة الاستبداد ومناهضة الفساد، او يتصل من التزاماته الادبية او يستسلم بلا شروط لمظاهر التعجرف والتكبر والانانية! من هذا المنطلق كان شياع، في عمله بالثقافة الجديدة، من الد مناهضي سياسة تأييد الراهن واسعاً ثقافة الخنوع وشل روح المقاومة والاحتياج والمطالبة بالحقوق، سياسة تركيع الارادات واسعاً الخوف واليأس وغسل الأدمغة والتجهيز، والغاء العقل النقدي والتنوع في الرأي، والتهميشه والاقصاء ومحاولات اسكات الاصوات واستغلال عوز الملايين ومعاناتهم ولهاائهم وراء لقمة العيش لتبيئهم، وبالتالي خلق استعداد لتنازلهم عن حقوقهم. ادرك شياع ان الاحتياج والمقاومة والمطالبة بالحقوق جزء لا يتجزأ من قضية الصراع الاجتماعي على السلطة، الذي يتجلّى جوهره في تحديد وجهة تطور البلاد ومستقبلها السياسي.

تشبث كامل شياع بالثقافة، وازداد تشبيه بها مع التجاهل والاهمل والاستهانة، في ظل غياب ادراك النخب السياسية المسكة بمقدرات البلاد لأهمية الثقافة واهمية دورها وحضورها في حياتنا وفي اعادة بناء الانسان والمجتمع والبلاد والنہوض به وبهما، خاصة ان الوطن يخوض معاركه القاسية المترامية، ضد العنف والارهاب والتطرف والتعصب

والفساد والاحتلال، ومن اجل رص قوى المجتمع الحية في مواجهة قوى الظلم والخراب والانهيار. لقد ادرك كامل شياع مبكراً لا اعمار للوطن من دون اعمار الثقافة - مؤسسات وبنى تحتية ومنابر ومرافق وموروثا عمرانياً وثقافياً، ومن دون صيانتها وتطوير فاعليتها وتتأثيرها في المجتمع، ونشر المزيد منها في عموم البلاد، وتحويلها الى جزء اساسي لا يتجرأ من حياة المواطنين اليومية، ووضع حد للأعمال المحبط بمنتجي الثقافة، ومطوري ومكلري انجازها ونشطائها، من المثقفين الذين يضعون ابداعهم ومواهبهم وجهودهم وانفسهم في خدمة شعبهم ووطنهم.

آمن كامل شياع بمخاطر الترهل في صوامع الثقافة ومحراب الفكر، وبأهمية توثيق العلاقات بين اتحاد الأدباء ووزارة الثقافة للاسهام المشترك في تعزيز الحياة الثقافية وبناء العراق الديمقراطي الجديد، اتحاد الادباء كمنظمة غير حكومية واحدى اهم لبنيات الحركة الاجتماعية في العراق وممثل مهني للأدباء والكتاب العراقيين، ووزارة الثقافة كمؤسسة ثقافية رسمية يقع عليها العبء الأكبر في رسم استراتيجية ثقافية وطنية شاملة للنهوض بمستوى النشاط الثقافي في البلاد، وكان من الاولى الذين طالبوا باستمرار بدعم وضع وزارة الثقافة مادياً ومعنوياً والتعامل معها بوصفها وزارة سيادية مهمة واخراجها من المحاسبة الثقافية، على ان لا تنفرد وزارة الثقافة لوحدها بانجاز الأهداف الثقافية الاساسية الكبرى بمعزل عن جماهير الادباء والكتاب والفنانين والاعلاميين والمثقفين العراقيين المعنيين اصلاً بالهم الثقافي.

آمن كامل شياع بالسياسة الثقافية الوطنية الديمقراطية التي تخدم السلام والاستقرار والتنمية المستدامة في بلادنا، وتتضمن حرية التعبير وتأكيد الذات (على المستويين الجماعي والفردي) والمساواة، واحترام الخصوصيات الثقافية وفتح مسالك التفاعل فيما بينها، والتي تؤمن الحق في المعرفة والاختيار، وتجعل من التمايز والاختلاف أساساً للتلاحم الاجتماعي الطوعي، ومصدراً لادرار ابعاد وثنايا التجربة الإنسانية في العراق وفي العالم

عبر التاريخ، والتي تنشر قيم التسامح والفضول المعرفي والذوقي تجاه الآخر منذ المراحل الأولى للتعليم، وتواكب تطور الحياة في عصرنا.

كان كامل شباب من رواد المشروع الوطني الديمقراطي والثقافة الوطنية الديمقراطية لانهما لا ينكران وجود الهويات الفرعية (العرقية او الطائفية)، لكنهما بالمقابل لا يكرسان هذه الهويات بديلاً تتماهى في كنهه الهوية الوطنية والتضامن الجماعي والرغبة في العيش المشترك. ثقافة كامل شباب الوطنية الديمقراطية قامت في مقامها الأول على قاعدة هدم النظام التراتبي (التفاضلي) الموروث ليحل محله نظام يحترم حق المواطننة والانتماء للوطن، وحق الفرد في اختيار وجوده، اشاعة وتكريس ثقافة الحوار والتسامح ونبذ ثقافة الاقصاء والتعصب والعنف، تحفيز المواطنين على المشاركة الفاعلة في الفعاليات والأنشطة المختلفة للمجتمع سبيلاً لتوسيع مساحة المشاركة السياسية كرافد حيوي للمشروع الوطني الديمقراطي، تعريف المواطنين بحقوقهم وحرماتهم وواجباتهم وحثهم على التمسك بها والدفاع عنها وتكريسها في سلوكهم اليومي اي توفير الوقود المجتمعي للمشروع الوطني الديمقراطي، ترسیخ مبدأ المساواة بين المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والطائفية او الطبقية والسعى الى نبذ ثقافة التعصب والاستعلاء، غرس روح المواطننة واعلاء شأن الهوية الوطنية على حساب كل الانتماءات الفرعية والتشجيع على التمسك بالوحدة الوطنية. ثقافة كامل شباب الوطنية الديمقراطية حفظت الصحوة "المدنية" وعودة الوعي "المدني" واستيقاظ الضمير "المدني"، وتراجع الافكار والمواقوف الدينية المتشددة في عراق المحبة والخير والسلام.

العراقيون بتاريخهم الزاخر بالثقافة والفن والادب نبراس لكل حضارات العالم رغم كل حقبات الموت والدمار، والفن والادب مدعون اليوم لاستئناف كل عناصر قوتهم واستكمال مسيرتهم.

٢٠٠٨/٨/٢٦

من سيحمني أمثال حكامل شياع في أرض السواد؟

لؤي عبد الإله

كان لقاءي الأخير بكامل شياع مستشار وزارة الثقافة العراقية، الذي اغتاله مسلحون مجهولون، لقاء خاصاً، مقارنة بتلك اللقاءات القصيرة التي سبقته، حيث كانا دائماً محاطين بأصدقاء آخرين. لعل ذلك يعود إلى العام ٢٠٠٢، وكان كامل قد اعتاد القدوم إلى لندن من وقت إلى آخر، من منفاه البلجيكي، ليلتقي بالأصدقاء لفترة قصيرة، ثم يختفي مرة أخرى.

كان اللقاء الأخير هو الوحيد الذي وجدنا فيه نفسيينا لوحدينا، فمضيت معه أقلب كل الأسئلة الوجودية والحياتية. ولأول مرة أجدني مصفياً لحديث كامل شياع عن التيارات الفلسفية التي عرفت تحت اسم ما بعد الحادثة، وأعلامها البارزين مثل جاك دريداو ويشيل فوكو. كان الشرح الذي قدمه كامل لي باسلوب بسيط وشيق لأهم أفكارهما وحالياً من أي استعراض ثقافي.

كانت هناك مواضيع كثيرة تدور في رأسينا، لكن هاجس الوقت ظل حاضراً مابيننا. إذ عليه أن يهيء نفسه للسفر المبكر جداً، لذلك كان علينا انتظار لقاء آخر لمواصلة الحوار الذي شكل أواسط جديدة بيننا. وهكذا، مثلاً تحدث دائماً بين المنفيين، تبادلنا العناوين البريدية والإلكترونية، مع تأكيدات متبادلة بالتواصل.

ولم تمض سوى سنة تقريباً حتى سمعت بأنه ذهب إلى بغداد، وأنه بدأ العمل في وزارة الثقافة العراقية، بصفة مستشار ثقافي.

ظل هذا السؤال يدور في ذهني دائمًا: من سيحمي كامل شياع، غير المسلح إلا بثقافة أكاديمية رصينة، وطبيعة دمثة، وتواضع جم، وقدرة هائلة على الاهتمام بالآخرين، من كل تلك الثنائيين الخرافية التي أطلق الاحتلال الأميركي عنانها، لتخاطر بتلك التي سبق للنظام السابق أن طورها وغذّاها خلال ٣٥ سنة؟

من سيحميه من القتلة المحترفين القادمين من مختلف الجهات، والذين أصبحوا اليوم محميين داخل عباءات الطائفية؟

حينما قرأت خبر وقوع ما كان هاجسا يوميا في نفسي، لم أتفاجأ، حتى الشعور العميق بالفجيعة والجزع الذي تملكتني.

فمن يحمي رجلا ظل يحلم بتوفير أرضية لانتشار ثقافة معاصرة، بعيدة عن كل ذلك السيل الجنوني من نشاطات جماهيرية، تذكر بالقرونظلمة التي مرت بالعراق بعد سقوط عاصمتها بيد المغول في العام ١٢٥٨ وحتى أواخر القرن التاسع عشر؟.

في كل المجتمعات المتحضرة، تشكل نخبة المثقفين من علماء وأكاديميين واطباء ومهندسين وحقوقيين وغيرهم، خميرة الإبداع التي تسمح لها بالتقدم والحفاظ على آليات عملها، على الرغم من أنها لا تتحل أكثر من نسبة ٥% من عدد سكانها. إنها تلك النخبة التي بفضلها تصاغ وتحفظ الذائقة والرؤية والضمير لكل مجتمع حي.

وما يحدث في العراق خلال الخمس سنوات الأخيرة هو تصفية منظمة ودقيقة لهذه الخميرة الضرورية لكل مجتمع إنساني، إذ قتل مئات الأساتذة الجامعيين والأطباء والعلماء حتى الآن، واضطر الآلاف إلى الهجرة.

لذلك فإن قتل كامل شياع هو ضمن هذا السياق: أنها رسالة واضحة من نفس الأطراف التي تغذي الاحتراق الطائفي والديني لتعزز امتيازاتها. ويمكن اختصار رسالتها كالتالي: ما نريده هو عراق بلا نخبة. أن يكون كل عراقي عاجزا عن طرح الأسئلة، أو

متقبلاً لأفكار الآخر واهتماماته، أن يكون مثل شخصية "زمبي" السينمائية: يتحرك كآلة تنفذ إرادة خفية وبعقل معطوب.

أفكر بما تطلبه المجتمع من جهود لتكوين شخص بمواصفات كامل شياع، جنباً إلى جنب مع جهوده الشخصية الدؤوبة في الدراسة. كم من المعلمين والمدرسين مع الوالدين والأقارب والأصدقاء شاركوا في صياغة إنسان فعال قادر على جعل العالم مكاناً أفضل للإنسان، من خلال التخلّي عن منفاه الهانئ وعودته إلى العراق معرضًا نفسه لخاطر القتل اليومي؟ كم من التجارب والجهود الشخصية شاركت في تحقيق نضجه وقدرته المفتوحة على العطاء؟ وكم كلف أولئك القتلة الذين تربصوا إليه ببنادقهم لاغتياله بدم بارد؟ كم ربحوا هُم ؟ وكم خسر العراق؟

القسم الثاني

حوارات مع الشهيد كامل شياع

الحوار الأخير مع الشهيد كاميل شياع الخطورة تأتي من توظيف الحقل الثقافي لصالح الأيديولوجيا

حاوره: مازن لطيف

الدم الوحيد الذي يفيض على خارطة المحاصصة هو دم المثقف، دم تشيعه الاشجار والطيور والفراشات والناس المتسیون، الجميع يشعر بالعار عندما يقتل مثقف لا القتلة ومن يقف وراءهم فهم يفتخرون بالذلة ويقدسون الجبن والا كيف يتجرأ انسان على قتل طفل، كيف يضغطون على زناد سلاح لقتل مثقف اعزل درعه قلبه وسلاحه عقله يدافع به مستمنيا لإنقاذ الحياة، كم الفرق هائل بين يد تنزع طفلا من تحت عجلات سيارة وبين يد تخنق انفاس الحياة كما فعل قتلة كامل شياع فهنئا للجبناء القتلة وهم يقتلون كل الاشجار المثمرة والجميلة ليبقى وحده الظلام والجهل يخنق العراق.

ان الثقافة العراقية في تجربتها خلال العقود الستة الماضية تميزت بكونها ثقافة ذات منحى دنيوي علماني غالب.. انها ثقافة مدينية تأثرت بالآيديولوجيات السياسية الحديثة التي سادت العراق وانحازت لأنفقها وعبرت عنها، مثلاً خالفتها وتمردت عليها. هذا ما يؤكده الكاتب والباحث الاستاذ كامل شياع احد ابرز مثقفي العراق الذي يرى ان الامل معقود على المثقف العراقي في المساهمة بصنع نظام انتاج ثقافي متعدد المصادر ومتتنوع الاتجاهات، وفي دوره كمروج لرؤية انسانية عقلانية مفتوحة على العالم تسهم في قيم المساواة وحرية الانسان وكرامته وخلق استجابة عامة للفن والجمال ..

* بعد التغيير الكبير الذي حصل في ٩ نيسان ٢٠٠٣ ظهرت ملامح حقيقة لجميع البنى والتركيبات الاجتماعية المكونة للمجتمع العراقي ماذا سيكتب التاريخ عن هذه البنى

والتكوينات؟ وهل تمثل اعادة كتابة التاريخ اعادة تقييم جديدة تعطي لكل ذي حق حقه؟

من الصعب التفكير بكتابه التاريخ أو اعادة كتابته بالمعنى الحرفي للكلمة في هذه المرحلة المعقدة الملتبة بالمفاجآت والمشحونة بالأفعال وبردود الأفعال لمختلف الأطراف السياسية التي تمتلك احيانا صوراً وهمية عن دورها وحجمها ومشروعها. تاريخنا الآن في طور الصنع، علينا ان نعيش المرحلة قبل أن نفكر بكتابة تاريخها.

الوضع السياسي الانتقالي والقلق والحرارك الاجتماعي الشديد الموجود في البلد يعكس في عمقه تشظي المجتمع وحالة البلبلة العامة التي من مؤشراتها انعدام اللغة المشتركة بين افراد المجتمع والجماعات والقوى، وبينها وبين الدولة الناشئة. كل يبحث عن ضالته وفرصته ومصالحه المباشرة، أما شروط الحوار والتفاهم فاضعف بكثير من شروط الاختلاف والخصام

أمل ان تفضي هذه المرحلة الاستثنائية ولكن الضرورية الى نقطة من الوضوح وانجلاء حقيقة البرامج السياسية، وذرع الثقة بين اللاعبين السياسيين وإيمان بالمشروع الديمقراطي والسبيل المؤدية إلى تحقيقه. والديمقراطية ليست شعاراً يرفع، وإنما مبادئ والتزامات. ينبغي أن لا ننسى أننا خرجنا من تجربة استبدادية من العيار الثقيل .

فالحاكم لا يأمن المحكوم ويحتقره، والمحكوم لا يأمن الحاكم ولا يثق به، والنظام الديكتاتوري السابق كان قائماً على قرارات اعتباطية وخوف وقتل وتجنيد الناس جماعات وافراداً في مهام عبثية. طيلة مدة السنوات الـ ٣٥ من حكم الحزب الواحد، مارست السلطة دورين : تضليل الوعي وتشويهه، وتسلط وحشي ونظام اوامری وسلسلة مغامرات مدمرة سيق لها الناس من دون سبب، غالباً من دون ممانعة ومن دون مقاومة تذكر. اليوم تحتاج إلى إعادة ثقة الناس بالحكومة، والمناخ المضطرب السلبي القائم قد

يكون مساعداً لتحقيقها بين الاطراف السياسية، وبينها وبين الشعب على ارضية الدستور ومجلس النواب والحكومة.

الحاجة أم الإخراج، كما يقال، وليس هناك طريق سهل للانتقال إلى نظام جديد لا سابق لنا به، هو النظام الديمقراطي البلجيكي. من إيجاد الثقة بين الدولة والمجتمع، وبين اللاعبين السياسيين يمكن أن تفتح مجالات أوسع للحوار. المهمة التي يواجهها العراق اليوم لا تنحصر في سماع أصوات حرة من هنا وهناك، المهمة الأساسية هي كيف نصنع من هذا التنوع والتضاد والتعارض الواسع والقاتل، إجماعاً صادقاً حول مشروع بناء الوطن، الذي هو مشروع عمل وليس مشروع كلام وبلاغة سياسية.

لا يكفي أن نتكلم عن الديمقراطية والحقوق ينبغي أن ننتقل إلى التسليم بمبادئ وثوابت تنطبق على الجميع من دون استثناء، أي العدالة وسيادة القانون. اذا لم نتمكن من تجاوز تكرار أفكار الماضي بأشكال جديدة، ولدينا اليوم أكثر من حالة لقوى الماضي التي تتذكر بزي الحاضر وتمارس انتهازية وتظاهرأ زائفاً، اذا لم نمتلك إرادة نقد الماضي وتعريته، لا يمكننا أن نبدأ من حيث ينبغي أن نبدأ.

لا يمكن بناء المستقبل بأفكار معاد تصنيعها من منتجات الماضي. وللأسف النسبة الأكبر من قوانا السياسية ما زالت مشدودة للماضي، وغير قادرة على إدراك أن المستقبل، بالنسبة لنا أو لسوانا من الشعوب، أهم من الماضي. أقول هذا وأضيف أنه ينبغي أن لا تخشى كثيراً على الماضي لأنه معنا وفينا دائماً، وهو عصب وجودنا الذي لا يمكن قطعه. ولكن علينا أن ننظر إلى المستقبل، أي إلى ما لم يحدث بعد. فقيمة الحياة في المستقبل، القوى الأصلية حقاً هي التي تحترم المستقبل، وتعمل من أجله وتضحي في سبيله. عكس ذلك نجده عند القوى المتطرفة والمعصبة التي لا تريد التنازل عن صورة ما وهمية عن الماضي. في حين أن الحيوان عن الماضي ليس اسقطاً له بل وسيلة لاسترجاعه على مستوى مختلف. يجب أن نذهب إلى الأمام ولا خشية على الماضي إذا خدم المستقبل.

التاريخية المعاصرة مجسدة في نصب كنصل الحرية للفنان جواد سليم، وأقصد المواطن الوسطي الذي يمتلك حداً معقولاً من المعرفة بواقع مجتمعه وتاريخه. ما تفعله الثقافة في الواقع هو إيجاد فرص للتماهي بين الفرد ومجتمعه، ومن ثم صناعة ذاكرة مشتركة وهوية تجمع الشعب ضمن زمان ومكان فعليين أو رمزيين، وضمن فضاء تخيل الواقع والتاريخ.

نحن نتكلم عن هوية جماعية تضم الشعب من خلال منجزه الثقافي المتحقق في الماضي القريب او في الحاضر، وله امتدادات عميقة في الماضي. التغيير الكبير الذي مر به المجتمع العراقي بعد العام ٢٠٠٣ افرز حالة من التشظي والتفكك في مكونات المجتمع وهذا أمر ملازم للتطور الانتقالي نحو نظام جديد يقوم على الحرية والحقوق والمواطنة. هذا الانتقال الصعب جلب معه ظاهرة تفكك الولاءات وتشتت ارشيف الذاكرة الجمعية للشعب العراقي، وهو ما كان قد حصل أصلاً منذ تسعينيات القرن الماضي. الكل صار يبحث عن هوية جزئية أو ولاء فرعى مُمثّل بمذهب او طائفة او عشيرة او منطقة. ظهور هذه الملامح المجزئة للهوية يعكس مجموعة من الاشكالات العميقة، أولها، ضعف انتظام العراقيين في اطار دولة قادرة على توحيد صورة المجتمع ودمجه، وبالتالي تحولها إلى مرأة أو مرجع للمجتمع، واقتصر بالمرجع منظومة القوانين ونظم العمل والإدارة والتطورات المشتركة التي تنظم وتضبط حركة المجتمع. وضعف الدولة حالياً تركها " فريسة" للمجتمع الهائج الذي غزاها ومزق جسدها، ووظفها لتلبية المصالح الخاصة لهذه الجماعة او تلك .

النقطة الثانية تتمثل في ضعف قيم المواطنة. هذه أيضاً مشكلة حقيقة يعاني منها المجتمع العراقي، المواطنة ليست رابطة عاطفية ولا شعوراً أمنياً، إنها علاقة قانونية في إطار نظام جمهوري يقوم على الأفراد الأحرار. لكن الفرد الحر عندنا لم يصبح حقيقة ملموسة، وإذا ضمنت له النصوص القانونية مواطنيته، فذلك لا يتحقق على مستوى الممارسة. عندما اتكلم عن المواطنة اتكلم عن استقلالية المواطن بضمانات قانونية تحمي

حقوقه وتحدد واجباته. هذه المواطنة هي القوة المانعة ازاء التأثيرات الطائفية والعرقية والعشائرية.

للأسف أدت غلبة هذه التأثيرات إلى إنتاج "مواطن" ذي بعد واحد يحمل الولاء للجماعة ويحتمي بها من الدولة العاشرة. هذه الظاهرة، كما هو معروف، ترتبط بالتحولات الكبيرة التي مر بها المجتمع العراقي، في العقود الأخيرة، خصوصاً في فترة الحرب مع إيران حيث تغيرت خريطة المدينة التي هي حاضنة ومسرح لقيم المواطنة.

المقصود هنا شبكة العلاقات المدينية، الحرمة، الشخصية وغير الشخصية التي تميز سكان المدينة عن أهل الريف حيث تسود علاقات القرابة والسدم والتضامن. العلاقات في المدينة يحددها العمل والمصلحة والجيرة وهي ناتجة عن الارتباط الوظيفي بالدولة أو بالسوق. فإنشاء احياء خاصة للعمال أو المعلمين أو المهندسين أو الضباط مثل حاجات اجتماعية ناتجة عن علاقات العمل أو المهنة، وهي علاقات تنطوي على امكانيات التفاعل والانفتاح والتسامح. وهذه السمات المدينية كانت موجودة عندنا لكنها سرعان ما بدأت تتدثر تدريجياً منذ نهاية السبعينيات بحكم الوضع القمعي والهجرات الداخلية الواسعة التي فتّت نسيج الحياة المدينية

نتيجة لذلك تحولت المدينة في حالات عديدة إلى حاضنة لأشكال من التضامن العشائري وعصبيات الجماعات الموضعية. نتكلم اليوم عن ثقافة متربّفة وهناك تربيع متحقق بالفعل، نقول ذلك من دون أن نفترض أن المدينة ينبغي أن تظل محاطة بسورها الأمين العازل لعواصف الزمن وتحولاته. الهجرات جزء من تاريخ المدينة، وهي مسألة طبيعية رغم أن ما يأخذ على مدينتنا وسواها من المدن العربية أن قدرتها على استيعاب الهجرات أضعف بكثير من قدرة الهجرات على فرض أنماط حياتها. هذا ما حصل في عاصمة كالقاهرة وسواها من العواصم العالم.

أي أن المدينة لم تكن مهيئة اقتصادياً واجتماعياً وتنظيمياً لاستيعاب ودمج الوافدين الجدد فيها.

صحيفة الصباح

كامل شياع: وحدة المجتمع في الأزمات التاريخية شرط ضروري لنجاح الدولة

حاوره: حسام السراي

يرى الكاتب والباحث كامل شياع ان منظمات المجتمع المدني بعد انتشارها الكبير تحولت الى جماعات شبه مستتبة ذات حضور وقتي قائم على ردود الفعل، وان لنا اليوم اسباباً حقيقة في اعتناق الخيار التاريخي لتأسيس نظام ديمقراطي في العراق، فالميل نحو ذلك قوي وواضح وفق ما يعتقد، مشيراً الى ضرورة ان نبقى نسلم باهمية وجود منظمات المجتمع المدني لأن تذبذب نشاطاتها ناتج عن تعددتها، ويؤكد على وجود جهد حقيقي مبذول لمعالجة قضايا مصيرية تخص العراقيين ولاملاح الناشئة عبر الاف المقترنات المقدمة بشأن الدستور ومئات الندوات التي عقدت لمناقشة ذلك، ليبين ان المنظمات التي تحول الى واجهات لافكار تقليدية ليست ضماناً للتحول الاجتماعي المطلوب، ولم يجد اشكالية الناشطين السياسيين الى منظمات شرط احترامهم خصوصيتها، وان السياسي الذي يراهن على هذه المنظمات لحل مشكلات مجتمعية واهم جداً، كما نوه الى ان التجربة البرلمانية في العراق ستختلف بلا شك طبقة سياسية من كل الاحزاب قائمة على الاجماع والاختلاف في آن واحد لحل قضايا ملتهبة لا يواجهها البرلنار الذي يصنع طبقة سياسية تختلف تماماً عن الاحزاب التي اعتادت ان تكون بعيدة عن بعضها وتعمل بشكل عدائي، وفي مجال الجمع بين الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية لا يرى امكانية لتحقق ذلك في العراق؛ لأننا لا نملك دولة قوية

واقتاصاداً إنتاجياً، وعن ادراك هويتنا ك العراقيين ولحظة التماهي - بحسب رأيه - بين الدولة والمواطن يجد ان تحقيقها مهم لنحصل على دولة ذات هيبة ومواطن حر.

(قوى الضغط بين الدولة والاحزاب)

* هل تعتقد ان منظمات المجتمع المدني استغلت اخفاق الاحزاب السياسية وفشلها في تحقيق مطالب المواطنين؟

نشأت منظمات المجتمع المدني في العراق في اوقات مختلفة غير ان نشاطها ظهر واضحاً وملموساً في الفترة التي تلت سقوط النظام ٢٠٠٣، وكان هذا رد فعل طبيعي لقوى اجتماعية مشلولة ولاحتكار السلطة وهيمنة الحزب الواحد والدكتاتورية على حياتين العامة والخاصة، فظهرت منظمات اجتماعية ثقافية انسانية وغيرها نهلت من مناهل التحولات الديمقراطية الجارية في العالم واصبحت جزءاً من رهان دولي على ترسیخ الديمقراطية في العراق وارى من الصعب القول انها اخذت مكان الاحزاب لانها موجودة بالتوازي معها (اي الاحزاب) وهي ايضاً في الجانب النظري تلعب دورها بوجود حياة سياسية تعدديّة، ونرى ان منظمات عديدة اتجهت لممارسة السياسة بعد ثبوت فشل من الاحزاب التقليدية والايديولوجية والسلطات القمعية عن اداء واجبها، وجذبت اعداداً ونخبةً راقية الى عملها، الاشكالية التي تحيط بها انها ترفع قضايا مطلبية وهذا ما يضعها في حدود الظرف والانية، بمعنى انها ليست احزاباً تمتلك مشاريع سياسية متكاملة لكنها تصلح ان تكون قوى موازية وقوى ضغط ضرورية بين الدولة والاحزاب وبين المجتمع والحكومة، من دون ان تكون بديلاً لها او ذاك، اصالة دور المنظمات تتمثل بوجود حاجات حقيقة وغير مفتعلة، وشاهدنا انتشاراً كبيراً لها وبدت كما لو انها اشكال مصدراً ولا تخلي من الافتعال في قدرتها على تحريك قضايا فعلية، فبدلاً من ان تكون رقيباً على عمل الدولة والسلطة وحافزاً لتحرير المجتمع تحولت الى جماعات شبه مستلة

ذات حضور وقتي قائم على ردود الأفعال، مما يشير الى اعتمادها على قوى خارجية ويجعل الشك قائماً في شرعيتها وفي قدرتها على ان تصبح طرفاً ممساً في اعادة دمج المجتمع وليس تفتتة، ولكن تكون قوى متكاملة للمجتمع وليس هدامة لمشروعه يجب توفر مؤسسات دولة واحزاب ونظام سياسي تعددي.

(وحدة المجتمع.. نجاح الدولة)

*منظمات المجتمع المدني عددها كبير ونشاطاتها متذبذبة كيف لنا ان نسلم بانها من ضرورات النظام الديمقراطي وهي على هذا الحال؟

- لا توجد وصفة جاهزة لطبيعة المجتمع الديمقراطي، وبالتأكيد هناك تنوع كبير في عملية تشكيله وبما نحن بالفعل في العراق بوضع لبنات اساسية لقيام مثل هذا المجتمع ولنا اسباب حقيقة لاعتقادنا هذا الخيار التاريخي بعد تعاقب النظم الدكتاتورية على حكم العراق وكذلك التجربة البرلمانية الكسيحة التي مرت بها في العهد الملكي، فالميل نحو الديمقراطية قوي واضح وهناك من يدافع عن ذلك فوجود منظمات بنشاطات متذبذبة ظاهرة تستحق النقد لكنها لا تنفي ضرورة وجودها كما أنها لا تنفي وجود احزاب سياسية ومنه لا يمكن بناء الديمقراطية الا من خلال التعددية واقرار الحقوق للجميع بعد ضمان المساواة وقدرة جميع الفاعلين الاجتماعيين على طرح الشأن العام والتداول فيه، فتبعد الاتجاهات التي تسير بها العملية الديمقراطية في بلدنا متنافرة لأول وهلة وكانتها ليس بالامكان ان تصب في نهاية محددة لكنها لا بد ان تنتهي الى شكل من التبلور لا مشاكل العراق السياسية تعني فشل المجتمع في التعبير عن نفسه وايجاد مقومات اساسية لوحدته فتم ترحيل كثير من القضايا الاجتماعية وتحويلها ومكوناته الثقافية والاجتماعية التي هي اساس لانبعاث الدولة ولا يمكن تخيل دولة تتشع مجتمعاً بطريقة اصطناعية خاصة في المجتمع عريق كالعربي، لا نتكلم عن مجتمع

مهاجرين انما له جذور عميقة وتاريخ طويل حتى من الصراعات والتحولات الطائفية والعشائرية والطبقية غير ان وحدته في الازمات التاريخية شرط ضروري لنجاح الدولة، اخيراً اذ ظهر لنا ان نشاطات المنظمات وحتى السياسية منها لا تصب في غاية التحول الديمقراطي في البلد فيجب ان نبقى نسلم باهمية وجودها، فهذا التذبذب الناتج عن التعدد، فضلاً عن عوامل داخلية وخارجية جميعها تحفز حركية المجتمع الذي لا يمكن ديمقراطياً بلا توتر، فالديمقراطية بقدر ما تحتاج الى التوافق تحتاج الى التوتر بين السلطات وبين الدولة والمجتمع وبين الحيز الخاص والعام وعلى مستوى الحقوق ومن سمات الطرح الديمقراطي انطلاقته من فكرة مفتوحة للمواطنة بدخول عناصر جديدة للمجتمع ايجابياً على حركيته وتحوله.

(معارك فكرية وثقافية)

* تتحدث عن الفاعلين الاجتماعيين ومن ضمنهم النخب المثقفة والناشطون في المنظمات الا تعتقد انهم تقاعسوا عن دورهم في التثقيف بمبادئ اساسية في عملية التحول التي تشهدتها؟

- ان عدداً غير قليل من منظمات المجتمع والنخبة المثقفة والاكاديميين ورجال السياسة لعبوا أدواراً كبيرة وقدمو خدمات جليلة في مجال بلورة وعي اجتماعي عام يمسك بتلابيب التكوين الاجتماعي المفتت ويعيد له وحدته المفقودة فاذكر ان الاف المقترحات قدمت بشأن الدستور ومئات الندوات عقدت لمناقشة قضايا الدستور وإثارة القضايا الخلافية وشمل ذلك بغداد وبقية المحافظات، مما يؤشر جهداً حقيقياً لمعالجة قضايا مصيرية تخص العراقيين وللامتحن الدولة الناشئة وساهم فيها المجتمع المدني وهي بحد ذاتها معارك فكرية وثقافية ونظرية ومع الزمن ستظهر النتائج التي تحققت وتراءكت نتائجها اي انها ستؤدي الى الاهداف المطلوبة ضمن شروط محددة في عملية

التحول الديمقراطي التي هي ليست خاضعة لوصفة مسبقة، بل ان المفاهيم هذه كلها اظهرت انها غير ذات صلة بما يجري في الواقع على مدى الثلاث سنوات الاخيرة، فهناك جوانب تناحريّة وجوانب اتفاق وتسويات سياسية ايديولوجية وتغليب للجانب الآخر سيفضي الى تحقق على مبادئ التعايش السياسي الذي لا ينشأ من دون توفر الثقة والتي فقدت بين فئات مجتمعية مختلفة ومناطق وقوى سياسية واننا لكي ننتقل من نظام دكتاتوري الى ديمقراطي تعددي فيدرالي يجب ان تتحقق هذه الثوابت الازمة لذلك ولكن بين الثوابت والمصطلح المختلفة مسافات كبيرة للمناورة والالتفاف والصراع حول السلطة والثورة.

ان السعي لزرع جسور الثقة مطلوب وكلنا نعرف انها فقدت لفترة طويلة بين الموظف والدولة والموظف وزميله لا يثق بالحاكم ذي التدهور الكبير نحاول الان تجاوزه بجهود ومحاولات الاقلام الشريفة ودعاة حقوق الانسان والسياسيين ١١ اضجيع.

(مجتمع مدنى.. آخر أهلى)

* برأيك اين الخلل ان اصبح المنتمون لاحزاب سياسية اعضاء في منظمات مجتمع مدنى؟

- فكرة المجتمع المدني قد طرحت في منطقتنا (ارتباطا بالوضع العراقي) منذ التسعينات واعتبرت علاجاً شافياً لتحديث المجتمع الذي انهكته الدكتاتورية والحكومات العسكرية ونظام الحزب الواحد كرد فعل على كل ذلك وعلى المنظومات الایديولوجية.

القسم الثالث

من كتابات الراحل كامل شياع

الدستور، الحريات وعودة المثقف

هذا المقال جزء من سلسلة دراسات وافكار من شاركوا معهدنا معهد الدراسات الاستراتيجية في الندوات والنقاشات حول مسودة الدستور قبل الاستفتاء و بعد اقرار الدستور من اجل استكماله بتشريعات ولوائح اخرى .ومما يسرنا ان مبارتنا هذه تتكاشف مع مبادرات رديفة مثل نداء "عهد العراق" يناقش مقال الكاتب كامل شياع مشكلات الحرية و الاخلاق من منظور فكري و اجتماعي الدستور، الحريات، وعودة المثقف

"خلاف الاستبداد تولد الحرية عموماً في مناخ عاصف، وتنمو بصعوبة وسط نزاعات أهلية، ولا يمكن للمرء أن يرى النعم التي جلبتها إلا حين تكون قد بلغت سن النضج" آليكس توكييل "الديمقراطية في أمريكا"

إطلاق الحكم في بعض نصوص الدستور أو تقييده بالنسبة لبعضها الآخر أمر وارد ومعمول به في مختلف دساتير العالم. فالقول مثلاً أن " لكل فرد حرية الفكر والضمير والعقيدة " يقر حكماً شاملأً وقاطعاً، وكذلك الأمر بالنسبة للقول " القضاء مستقل ولا سلطان عليه لغير القانون " أو " يحظر إنشاء محاكم خاصة أو إثنانية" أما القول بأن " لكل فرد الحق في الخصوصية الشخصية، بما لا يتنافى مع حقوق الآخرين، والأدب العامة " فينطوي على تقييد لممارسة الفرد خصوصيته. والأمر ذاته ينطبق على المادة ٣٦ من الدستور العراقي الدائم التي هي موضوع مقالنا هذا. تنص المادة على:

تケف الدولة، بما لا يخل بالنظام العام والأدب:

- أولاً: حرية التعبير عن الرأي بكل الوسائل.
- ثانياً: حرية الصحافة والطباعة والإعلان والإعلام والنشر.
- ثالثاً: حرية الإجتماع والتظاهر السلمي، وتنظم بقانون.

من المؤكّد أن موضوّع الحرّيات مثير للجدل وشديد الحساسية لأنّه يتعلّق بما يمكن اعتباره نقطة سوداء في تاريخ الدولة العراقيّة الحديثة. في بين إطلاق الحرّيات في المجالات المشار إليها وبين اشتراط التزامها بـ "النظام العام والأدب" منطقة رماديّة تتبع الريبة وتستوجب الحذر. وإنّ اثاره هذه القضيّة على جدول النقاش سواء في مبادرة "عهد العراق"، أو "معهد الدراسات له اسبابه الوجيهة" وان عبارة "النظام العام والأدب" أعلاه توحّي للذهن الليبرالي مباشرة بأسوأ ما يمكن أن تضطلع به الدولة: التضييق على حرّيات الأفراد وبالذات المفكّرين والمبدعين منهم، تحت دعوى حماية الصالح العام. الدولة التي ترشح نفسها لتكون قيمة على الأخلاق العامة، لا تنتج في الواقع إلا القهر والتّعسّف، هكذا يجاج من له قناعة ليبرالية، أو من خبر الحياة تحت ظل نظام شمولي.

ليس مردّ الريبة ومرجع الحذر من العبارة الاعترافية، "بما لا يدخل بالنظام العام والأدب" في التقييد ذاته، وإنما في ما يمكن أن تترتب عليه إجمالاً من تفسيرات ضيقية أو منظورات محافظة. وهذا الاحتمال أصبح قائماً بالفعل نتيجة التركيب الطائفي للدولة العراقيّة الحاليّ الذي يعكس حالة مجتمع ممزق مشحون بالصراعات، يفتقر إلى التقاليد الديمقراطيّة وتکاد تنحسر فيه روح التضامن والمواطنة. لذلك هناك خشية حقيقية من أن يؤدي تفسير هذه العبارة إلى تقييدات اعتباطية للحرّيات المنصوص عليها.

يضاف إلى ذلك أن الدولة العراقيّة عبر تاريخها لم تضع ضمن أولوياتها صيانة الحرّيات المنصوص عليها في الدساتير التي سنتها، بل تقليصها أو التجاوز عليها بذرائع

شتى فكرية وسياسية. لدينا على هذا الصعيد العديد من الأمثلة الصارخة، حسبنا أن نذكر منها دستور عام ١٩٧٠ المؤقت والمعدل الذي نص في مادته السادسة والعشرين على: "يケل الدستور حرية الرأي والنشر والإجتماع والتظاهر وتأسيس الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات وفق اغراض الدستور وفي حدود القانون. وتعمل الدولة على توفير الأسباب الازمة لمارسة هذه الحريات التي تنضم مع خط الثورة القومي التقدمي".

أهمية هذا النص تتبع من كونه نصاً أيديولوجيَا بامتياز، وضع موضع التطبيق والاختبار لمدة طويلة نسبياً تفوق الثلاثين سنة، وبرهن بالفعل على إن إرادة السلطة أقوى من أحكام القانون وأعلى من مصلحة المجتمع. فحريات مثل التعبير عن الرأي والنشر والإجتماع والتظاهر وتأسيس الأحزاب السياسية والنقابات والجمعيات صادرتها "اغراض الدستور" وأفرغها "خط الثورة القومي التقدمي" من مضامينها.

لذلك يجوز القول بأن ثبيت حريات من هذا النوع والالتزام الدولة بحمايتها لا يحسب إلا للدستور كنص، أي كصيغة شكلية أو إسمية أو معيارية لإقرار قضية ما عاد تجاهلها ممكناً. أما الإلتزام الفعلي بها فيتوقف على فلسفة الحكم أو أيديولوجيته، ونضج الحياة السياسية عموماً. لقد بقيت دولتنا العراقية عبر ثمانين عاماً من قيامها هشة وقابلة للإخراق إزاء التوظيفات أو "الغزوات" الأيديولوجية للسلطات الحاكمة التي تعاقبت عليها، وتعزز بضعف المكون الديمقراطي في الحركة السياسية لأسباب تاريخية معروفة. علينا ما نصت عليه المادة ٣٦ من الدستور الدائم تدعونا للتفكير في جملة من القضايا. علينا أولاً: حسم موضوع الاعتراف بمبدأ التقييد الذي يعزى إلى قواعد الأخلاق أو الأعراف كما في العبارة الشرطية، "بما لا يتعارض مع ... أو بما لا يخل ب.... الخ" المذكورة في المادة موضوع الحديث، أو يترك أمره إلى المشرع كما في عبارة، " وينظم بقانون" الواردة في المادة ١٠ من دستور ١٩٥٨ التي تنص على " حرية الإعتقد والتعبير مضمونة وتنظم بقانون". ولكن سواء تضمن الدستور تقييداً لحريات التعبير والنشر والاجتماع أو لم

يتضمن، هناك في جميع دول العالم قيود مفروضة عليها. في بريطانيا هناك قانون يمنع التجنيد، وفي فرنسا يعاقب كل من يشكك بالنسخة الرسمية عن محرقة اليهود في معسكرات الاعتقال النازية، وهلم جرا. وهناك أيضاً رقابة، ليست سيئة بالضرورة، على بعض البرامج التلفزيونية التي تروج للعنف والكرامة والإباحية، وكذلك على الواقع الإلكتروني التي تروج لتجارة الجنس، وهناك رقابة محدودة زمنياً، على تداول المعلومات أو على كتابة التاريخ وغير ذلك.

لا نقصد هنا طبعاً تبرير القيود المفروضة على الحريات، بل تأكيد شرعية المطالبة بها حين يلتف عليها نص الدستور أو تجهز عليها السلطة. لذلك فهي تحتاج إلى أساس أخلاقي (غالباً ما يكون ذا طبيعة خلافية)، كي لا تكون سائبة وعبثية، أو تسقط في نظرة نسبة مسطحة تلغى المقايسة بين حالاتها وتجلياتها.

علينا ثانياً: تمحيص أسباب التقيد وغايته. فعل المستوى الأكثر تجريداً يعبر تقيد الحريات في نص الدستور عن نزاع عميق حول مفاهيم الصالح العام، طبيعة المجتمع والتاريخ، وماهية الإنسان. على هذا المستوى يحيل فهم الحريات وتفسيرها على مجال الغaiات البعيدة والمثل الكبيرة التي تتسع إزاءها شقة الخلاف بين الأيديولوجيات والقيم الحضارية. فالماركسية والليبرالية والقومية التي تعارض بعضها بعضاً في مسائل الدينية للعالم، وكذلك هو الحال مع قيم حضارات الشرق والغرب (الغرب الحديث على وجه التحديد) التي تلتقي في موضع وتفترق في أخرى لدرجة يتخيل بعضهم أن هناك شرخاً أسطورياً بينهما.

أما على المستوى الملموس فإن السؤال من يقيد الحرية؟ ولماذا؟ هو سؤال عمل يرتبط بالصراع السياسي المحكم بعاملين القوة والشرعية. والخشية على الحريات من نص الدستور ذاته تجد ما يسندها اليوم في ما هو قائم خارج النص حيث السياسة السائدة

سياسة هوية طائفية وأثنية وولاءات تقليدية. من هذا المنظور، ليست الحريات وحدتها في خطر، فمن الممكن أن يؤدي تلازم هذا النص الدستوري وبتلك السياسة إلى فرض تفسيرات ضيقة وأحادية الجانب لعلاقة الدين بالدولة، مصادر التشريعات والقوانين، نظام التعليم والمناهج الدراسية، حقوق المرأة، المواطنة، وصلاحية المواثيق الدولية حول حقوق الإنسان. لكن ما يعنينا في إطار السياسة فينبغي أن نضع في الحسبان أننا لستنا إزاء معركة أخيرة لو خسرناها لخسرنا كل شيء، ولو كسبناها لكسبنا العالم بأسره ! بل إزاء معركة طويلة الأمد على الحقيقة والعقل والعدالة الاجتماعية والحرية وكرامة الإنسان، وفي هذا المجال يمكن لنظمات المجتمع المدني أن تنشط لتشكيل صورة مغايرة للعراق الذي تسلط عليه الديكتاتورية فأشاعت فيه صنوفاً لا تعد ولا تحصى من الخراب والتشوه والتخلف . لقد من العراق ب曩ض شنيع تسلطت فيه الديكتاتورية فأشاعت الخراب والتخلّف. ومن المهد التأريخي الذي انتهينا إليه يبدأ صراع مفتوح على المستقبل الذي لا يستوي النظر إليه مع صناعته على الأرض.

أخيراً، أن قيمة الدستور بصيغته الحالية لا تكمن في كماله أو عدم كماله، بل في تهيئته لسياق سياسي وفكري مناسب للصراع على تفسيره والاجتهداد في تعديله وتطويره. التأسيس السليم يقتضي بداية صحيحة لكنه يقتضي بدرجة أكبر خوض صراعات حقيقية حوله. بدون ذلك تكون الفكرة في واد الواقع في واد آخر. وإذا ما تواصلت العملية السياسية، فستنتظر العراق معارك مكشوفة على الحريات وعلى سواها من القضايا الأشكالية. رغم التناقضات الظاهرة التي توحى أحياناً بنهايات قاتمة، لم تتوفر للمثقف العراقي شروط أفضل للظهور كقوة مدنية ذات مشروع تاريخي إنساني. وثمة فرصة فعلية في منطقة عدم التحديد، التي يسمّيها نص الدستور أو يقف دون تسميتها، أدركتها مجموعة غير قليلة من مثقفينا وجسّدتها في مبادرات عديدة لتفعيل دور الفكر والثقافة في صناعة روح هذا الزمان. ورصيدهم في ذلك الحريات التي سُنحت للمثقف في لحظة " .

الفوضى" بين سقوط النظام القديم وتباور نظام جديد. إن عودة الوعي إلى المثقف الذي سلبته السلطة من حرياته، واستسلام لها حين لم تتيسر له منافذ أخرى، يعني خروجه من قوقة الهموم الذاتية الرومانسية، ويعني أيضاً عودته إلى عالم الحياة.

الحوار المتمدن - العدد: ١٣٨٩ - ٢٠٠٥ / ١٢ / ٤

الفلسفة..الحقيقة وتنوع أنماط التفكير

لم يظهر ، حتى وقت قريب ، ما ينazu الرأي القائل إن الفلسفة نتاج غربي خالص ؛ نتاج توفر على أسلوب متميز في التفكير وعلى لغة ومفاهيم تقنية محددة ، وعلى نصوص مرجعية لفلاسفة أعلام مثل افلاطون وأرسطو وديكارت وكانت وهيغل وفيتنشتاين . تستند الفلسفة الغربية ، وفق هذا الرأي ، إلى تقاليد متصلة ومتواترة منذ ألفين وخمسمائة سنة جرى تحقيقها إلى قديمة ، وقرون وسطى وحديثة ، وتقسيمها إلى حقول ومباحث تشمل قضايا الوجود والمعرفة والأخلاق والجمال .

تشعب هذه التقاليد أيضا إلى اتجاهات متصارعة كالواقعية ، الاسمية ، المثالية ، المادية ، التجريبية ، العقلية ، الوضعية والتحليل اللغوي؛ بل وتتخذ صيغة الجمع فتصبح فلسفات عند الإشارة إلى المنظومات التي أشار إليها افلاطون وأرسطو ، ديكارت وسبينوزا ، شوبنهاور أو هيغل . أخيراً، على الرغم مما يقال أن الفلسفة الغربية بكل تاريخها هي مجرد شروح وهوامش على ما كتبه افلاطون ، وأنها تدور حول قضايا أزلية مثل العلل الأول والخيارات القصوى والمعرفة المثل ، فإن مسیرتها عكست أطوارا من التحول والتتطور بالاقتران مع التطورات في المعارف والعلوم . في اهتمامها المتواصل بإشارة أسلمة كبيرة وتقديم إجابات عقلية عليها ، سعت الفلسفة من أجل فهم العالم وليس من أجل اكتشافه ، وظل مفهومها للحقيقة ذا طابع تاريجي وناري مقارنة بالحقيقة المطلقة التي تأسست عليها الأديان السماوية .

ضمن هذا المنظور ، فإن الاعتراف بتحقيق الفلسفة إلى مراحل وبتعدد ألوانها ومباحثها وتبابين منظوماتها وتطور قضاياها يؤكد أكثر ما ينفي انتفاء الفلسفة إلى نوع واحد أو جنس فريد من التفكير اختصت به الحضارة الغربية وميزها عن سواها من حضارات العالم .

لهذا لا غرابة أن تذكر الفلسفة بصيغة المفرد ، بينما توسم الآداب والفنون والأديان بصيغة الجمع ، أو أن يستبعد أغلب مؤرخي الفلسفة الغربيين مساهمات الحضارات الأخرى كالهندية والصينية على اعتبار أنها لم تنتج إلا أشكالاً أولية وفجة للتفكير الفلسفى . ولم تشذ عن قاعدة النظر هذه إلا الفلسفة العربية الإسلامية التي لا يدنو شك المؤرخين من أصلتها ؛ إذ يندر من يحاجج في فضل ابن سينا في إبداع التمييز الحاسم بين الوجود والماهية في الميتافيزيقا ، أو في فضل ابن رشد في إظهار عدم تعارض الحقيقةتين (العقل والوحى) وشرح كتب أرسطو وإحياء النزعة الأرسطية العقلية . بالطبع ، ما كان ممكناً لهذا الاعتراف أن يتحقق دون فهم الفلسفة العربية الإسلامية كجزء من التاريخ العام للفلسفة الغربية ، ومن تاريخها في القرون الوسطى حصراً ، وكتنوبيع على بعض مشكلاتها الدائمة عن أصل الوجود ومسالك المعرفة وحدود العقلين النظري والعملي وسبل التوفيق بين العقل والنقل .

الفلسفة اليونانية : معجزة أم مصادفة تاريخية ؟

يرتكز القول بأن الفلسفة هي نتاج غربي خالص على أطروحة أساسية هي أطروحة المعجزة اليونانية ، التي تفيد بأن الأغريق ، دون شعوب العالم القديم ، حققوا ، نتيجة عوامل عرقية أو ثقافية ، نقلة نوعية رفعت التفكير من مستوى الأسطورة إلى مستوى العقل المجرد . من صفات المستوى الأخير اندماج العقل في المعقول وليس في قوى الطبيعة

العمياء كما كان حاصلاً من قبل ، والجمع بين وظيفة إدراك العالم عقلياً وبين ارتداد العقل على نفسه مفكراً في عدته ومفاهيمه بصورتها المجردة .

لا ريب في أن البعد التقني المتمثل في المنطق والتحليل النبدي للمفاهيم والأسئلة يشكل أهم سمة للفلسفة اليونانية والغربية ، والتقليل من قيمة هذا البعد قد يكون مفيداً لبلورة مفهوم أوسع للفلسفة يشمل التفكير النظري المتحقق في الحضارات الأخرى من هندية، وصينية، وأفريقية . لكن نكرانه ، كرد فعل على المركبة الأوروبية وما ينجم عنها من تفوق واستعلاء ، يرتفق إلى سلب الفلسفة اليونانية ، التي تشكل واحدة من دعائم الحضارة الغربية ، من أبرز عناصر اختلافها عن نظيراتها في العالم .

وسندخل حينئذ في تقييمات اعتباطية لما هو أصيل ومميز في هذه الحضارة أو تلك . لذلك لا بد من تعين اختلافات التفكير من حيث درجة التعقيد والتجريد ، على أن يتم تفسيرها بطريقة سياسية تتجنب الأحكام المسبقة والتعيميات غير التاريخية . إن أطروحة المعجزة اليونانية تؤدي ، من ناحية ، إلى مغالطة إذا ما أريد لها أن تكون دليلاً لتمييز جوهري ثابت وقاطع بين التفكير التحليلي العلمي والتفكير التكعيبي الأدبي أو الأسطوري . ووجه المغالطة هنا لا يمكن في القول بأن فلاسفة اليونان قبل سocrates وبعده حاولوا فعلاً التفكير بمبادئ الكون وأسبابه بحثاً عن المبدأ الأول والعلة الأولى المحركة لنظام العالم ، وإنما جعل في ذلك حكراً خاصاً بهم ، ولمن اقتفي خطاهم حتى يومنا هذا ، دون سواهم من مفكري وحكماء الصين والهند وبلاد فارس .

حقاً أن العقل والعلم شكلان السمة الغالبة للحضارة اليونانية ، وأن الحكمة والتنظيم شكلان السمة الغالبة للحضارة الصينية ، وأن التأمل والدين شكلان السمة الغالبة للحضارة الهندية ، لكن ، بجانب نقاط التمايز هذه ، كانت هناك نقاط تشابه . ينبغي للمرء أن لا ينسى ، مثلاً ، أن سocrates وكونفوشيوس وبيوندا ، الذين عاشوا في فترة متقاربة نسبياً بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد ، جمعهم هم واحد هو الاشتغال على موضوعات

الحكمة والفضيلة والأخلاق العملية . وهذه موضوعات فلسفية تعادل، إن لم تتفق ، في أهميتها الموضوعات التقنية والتخصصية الدقيقة في الجامعات الغربية .

الطريق الطويل نحو الحداثة...

تأملات في قضايا الديمقراطية والهوية

الفوضى الضاربة أطاحتها في عراق اليوم تدفع أغلب المحللين والمراقبين إلى يأس مطبق. العراق برأيهم سائر لا محالة نحو أنق مسدود أو مقبل بالتأكيد على كارثة محدقة. وهناك معطيات وأدلة تدعم هذا الرأي، لكن الحصة الأكبر في صناعته تعود لوسائل الإعلام التي نجحت بجدارة، من خلال الصور والأخبار المثيرة، في تشكيل وعي يومي حاد وقاعدة أحكام جاهزة حول ما يحدث أو ما يمكن أن يحدث في بلد "الألف ليلة وليلة". فالدليل ظاهر وصارخ بأرقام قياسية لضحايا العنف الأهلي وإرهاب الجماعات المسلحة المحسوبة على "المقاومة" أو على الأحزاب والدولة. عدا هذا، فالعلم البادي على السطح تخذل أيضاً كل من تخيل نقلة سريعة وسلسة للعراق نحو شاطئ الأمان، وهي بما تقدّمه يومياً من ألم وبشاعة تحمل في ثناياها ما يرضي تماماً رهانات قوى قومية وإسلامية ويسارية داخل العراق وخارجه..

مقابل ذلك، تظهر في محيط الفوضى الهائج وتيارات التخمينات ملامح أولية لنظام سياسي جديد، كإقرار دستور دائم للبلاد وإنبعاث مجلس نواب منتخب وحكومة شرعية وتبلور كتل وقوى سياسية ذات مكونات واتجاهات ومواقف محددة إزاء المسألة الوطنية، طبيعة التمثيل السياسي، الحقوق القومية والثقافية، دور الدين في السياسة والحياة العامة، وجود القوات المتعددة الجنسيات وبرامج إعادة إعمار البلد.

تلك المؤشرات لا تدحض، بالطبع، حجج اليائسين من الوضع ولا ترجح كفة دعاء الأمل بالتغيير. لكنها، في جميع الأحوال، ضرورية لفهم ما يجري بطريقة أعمق وإحاطة

بتفاصيل المشهد الراهن الذي صار يبدو أحياناً أقرب إلى مشهد إفتراضي رؤيته متاحة للجميع، رغم أن قلة قليلة يمكنها أن تشعر بوجوده أو تدرك سياقه الفعلي. نقول هذا، من دون أن نتغافل عن الحيرة التي يثيرها السؤال عما سيفرض إلى إليه الوضع المحتدم في بلدنا حين نحاول ربط الظواهر بأسبابها، والأدعاءات المعلنة للأعبين على مسرح السياسة بنواياتهم المضمرة.

هناك فعلاً طبقات من غموض كثيف نابع من حقائق صلبة ومعطيات عملية متحركة، غموض يصعب إختراله في سيناريو كاريكاتيري قابل للتعديل بطريقة اختيارية فيما نشاء ومتى ما نشاء. بوحي من هذا الغموض، نتساءل: هل إن استنفار الروح العصبية لدى الجماعات المكونة للمجتمع العراقي والإفراط في التمثيل السياسي يمثلان المادة الازمة للفوضى "الخلاقة" التي ستتمخض عن ديمقراطية مصدرة إلينا من الخارج؟ هل أن قبضة الإستبداد الحديدية أبان الحقبة الديكتاتورية التي احتكر فيها الحزب الواحد تمثيل الإرادة العامة للشعب، هي الثمن الضروري والوحيد لنظام "وطني" ضامن للوحدة والإستقرار؟ هل نجد بديل الدولة المركزية في نظام دوليات مشدودة بلحمة قومية أو طائفية أو عرقية، منعزلة عن بعضها ومتطلعة إلى حلفاء وأنصار وراء الحدود؟ هل تراجعت حقاً فرص قيام إجماع حر ضمن دولة تعددية إتحادية أمام الميلول النازعة نحو دولة ما بعد وطنية، هي أقرب إلى سلطة جماعات منغلقة على بعضها إجتماعياً وثقافياً وجغرافياً؟ خلاف ذلك، هل يسير العراق نحو انموذج ما لدولة مركزية ضعيفة تسمح بتعابس مجموعات قومية وثقافية وعرقية متمايزة عن بعضها بقدر معقول من التوازن، ولكن على حساب قيم المواطنة الشاملة والحقوق والحريات؟ هذا الإحتمال لقيام نظام ديمقراطي حال من المحتوى وارد تماماً حين نضع بعين الاعتبار مصالح القوى السياسية السائدة وخططها ومناوراتها، وهو بالطبع لا يمت بصلة للبديل المطلوب عن الحكم الديكتاتوري، ولا لما روج له دعاة الحرب الأمريكية لتحويل العراق إلى مركز إشعاع

لليديمقراطية في المنطقة، اذ يبدو جلياً أن لا المكونات الاجتماعية والسياسية القائمة في العراق حالياً، ولا التجارب المشابهة في المنطقة وخارجها، تسمح بجعل تلك الفرضية البراقة قابلة للتحقق أو التصديق في المدى المنظور.

هذا المقال سيخوض في مجموعة من الأسئلة والقضايا المرتبطة بالديمقراطية والهوية الوطنية ضمن إطار فرص وأفاق التحديث السياسي المنشود في العراق.

الحوار المتمدن - العدد: ٢٣٩٠ - ٢٠٠٨ / ٨ / ٢١

قراءة أولية في لوحة أفكار

ستتوقف، في البداية، عند ثلاثة مفاهيم نجدها مفيدة لإلقاء الضوء على خلفية ودالة بعض التيارات الفكرية والسياسية السائدة في عراق ما بعد الديكتاتورية. هذه المفاهيم مستلبة من قواميس التحليل النفسي عند فرويد، ونقد القيم الأخلاقية عند نيتše، والفلسفة المثلالية عند إفلاطون.

المعروف عن فرويد أنه إكتشف اللاوعي بوصفه منطقة مظلمة في النفس الإنسانية تراكم فيها الرغبات الخفية والغرائز المقموعة، وتشكل خزيناً لا ينضب يتسرّب بأشكال شتى إلى السلوك والكلام والخيال الإبداعي. هناك سمتان لللاوعي الذي هو موضوع التحليل النفسي يمكن أن يجدا تعبيرهما في الحياة العامة، هما التبعية للماضي، وخفوت الحس التاريخي. فماضي الفرد عند فرويد لا يتوقف عن إظهار نفسه في الحاضر بحيث يستحيل فهم هذا من دون ذاك. ولأن اللاوعي فاعل دائمًا فلا زمن له ولا حدود؛ إنه إتصال لا ينقطع ينazuء مبدأ الواقع - الأن، الوعي، العقل، النظام الاجتماعي - فيخترقه أحياناً وينكسر أمامه أحياناً آخر، من دون أن يتلاشى في الحالتين. لنتنظر بعين فرويد المحورة، بهذه الدرجة أو تلك، إلى الخطابات السياسية السائدة في المشهد العراقي، لنرى الإجرارات الخيالي للماضي، الإحساس بالظلومة حتى في لحظات القوة والمقدرة، التثبيت النفسي الجماعي والتماهي مع أحداث تختصر سياق الزمن ومعناه في يوم محدد وواقعة معروفة..

أما نيتše فيفيديننا بنظرته النقدية إلى القيم الأخلاقية كقوة قادرة على محاصرة عالم الحياة بداعي الإستواء من الحياة ذاتها لا بداعي الإرتقاء بها. فيجري بإسمها التضييق على مسرات الجسد والروح، والتذكر لحق الفرد المستقل في عدم الإمتثال لأعراف الجماعة. لنسترجع هنا المحظورات والمكرهات المفروضة على المجال العام، وتزّمت المتطرفين

الدينيين ودعواتهم الشبيهة بالجلد الأخلاقي. لنتأمل مظاهر التقديس المفرط في الساحات والشوارع ودوائر الدولة، ثم لنتذكر قيمة نظرية نيتشه الذي توغل بها نحو تخوم عدمية خطيرة لا تترك خياراً لمجاراتها.

بعد الهبوط في مهاري النفس ومتاهاتها، والإستخدام السييء للقيم نمضي إلى المعلم الأول إفلاطون، ليحلق بنا نحو الاعالي، إلى عالم الأفكار حيث الخير المطلق والعدالة النهائية. هناك، برأيه، ينبع جذر الوجود وليس في عالم المحسوسات والمرئيات الزائل والخادع، وهناك تتجسد الحقيقة النهائية التي تستلهم الدولة المثالية صورتها منها فتضمن الخلاص على الأرض، دولة المدينة الفاضلة التي دونها الفساد والشقاق والضلال. لنتأمل من هذه الزاوية مقاصد من يعيد إختراع الدين كدولة تجسد الخير المطلق، والتقاليد كحالة طبيعية ثابتة، ويبشر بدولة مثال سابق أو منفذ آت. ولنقس مقدار الإنزياح عن ضرورات الحياة المدنية، وفداحة نسيان عالم الوجود بعدم الإعتراف بالتنظيمات السياسية والمؤسسات المدنية كالدستور والبرلمان والانتخابات.

الديمقراطية.. مقدمات وأوهام

عراق اليوم يسبح في بحار طائفية هائجة. والعقبة الكبرى التي يواجهها التحول نحو الديمقراطية فيه تتجسد في العوائق الإشكالية للتمثيل السياسي على أساس الهوية القومية أو الطائفية. ورغم إن التمثيل وفق هذه الصيغة ليس شاذًا ولا سيئاً بحد ذاته، إلا أنه من الناحية الفعلية يحمل في طياته ما يهدد كيان دولة كانت موحدة، ويقوض الأساس الوطني اللازم للتحول نحو الديمقراطية. وبيان ذلك، أن هذا التمثيل حين يتجلّى كمحاصصة، معتمدة رسمياً ومنظمة على وفق توازن "عادل" وتشمل تقريباً جميع الواقع الرئيسية في مؤسسات الدولة، يتعامل مع السلطة كملك أو إمتياز يكاد يكون حصرياً. وباستناده على منظور لاهوتى للسياسة، أو على نزعة عصبية محافظه، لا ينسجم هذا التمثيل مع الجوهر التعددي والبعد الأفقي للسلطة في النظام الديمقراطي. ولأن تأجيج مشاعر الإنتماءات الفرعية يتعارض وقيام مشروع جديد يحرر عقول الناس وعلاقاتهم ببعضهم من الروح التسلطية، ثمة حاجة لتوجيه سهام النقد إلى المفهوم السائد للسلطة الواحدة بتبني المفهوم التعددي لها. وثمة حاجة لهدم حصنون الطائفية والتعصب بطرح تصور مدنى، إنسانوى للمجتمع، وجعل عناصر الخصوصية التي تدعى تلك الحصون حمايتها مكوناً حياً للجماعة وليس بضاعة فولكلورية أو صنماً تراثياً جاماً. حين يغدو الإنتماء والخصوصية الثقافية سجنًا للوعي والشعور الفردي، فلا قيمة لها ولا رجاء منها. ثمة أيضاً حاجة لعدم المقايسة، أو في الأقل تشكيك مستمر بصحتها، بين العقل السياسي والعقل الديني، فالأخير عام وعملي ومتجرد، إلى حد ما، مجاله تنظيم المصلحة العامة، والثاني شخصي وروحي ومنفعل يختص بالتجربة الذاتية في الإعتقاد. ولا

خشية من إقرار هذا التمايز لأنه يهيء مقدمات تركيب أو وحدة أكثر تعقيداً وغنى على مستوى المعنى والمضمون.

إن ولادة الديمقراطية في العراق عملية عسيرة من دون شك، وصياغتها الممكنة والحاصلة فعلياً لا علاقة لها بصياغتها المتخيلة. سنخطئ من الناحية العملية لو تصورنا أنه يمكننا أن نسكن دفعه واحدة في ظلالها الآمنة، وسنخطئ أيضاً إن تصورناها متلازمة مع الرفاه الاجتماعي (يكفي أن نذكر أمثلة صارخة في التفاوت الاجتماعي من جنوب أفريقيا، البرازيل، والأرجنتين)، وسنخطئ أخيراً لو نظرنا إليها كمحظوظ جاهز يمكن نصبه في تربتنا دون حرثها كما يحرث الفلاح الحقل.

ثمة ضروب من الأوهام والغالطات أحاطت ولما تزل تحيط بفهم الديمقراطية في العراق، منها:

١- مغالطة التفكير الرغبي التي تذهب إلى أنه ما دام بناء الديمقراطية يقتضي الإنتخابات الحرة، فإن المفترعين سيختارون بالضرورة الخروج من إطار هيمنة الفكرة الواحدة أو العقيدة الشاملة أو عدم الإنحياز إلى الولاءات الفرعية. وهذا خطأ لا يعادله إلا خطأ تصور المجتمع المدني على أنه حامل لوعي مدني ومساق به.

٢- مغالطة تفوق روح المواطننة على الولاء للجماعات التقليدية، وهذه تعتبر الممارسة الانتخابية وسيلة لتعزيز حُسْنَ المواطننة التي وصفها أرسطو في كتاب "السياسة" بأنها لا تقتصر على الإقامة في المدينة والإستفادة من محاكمها لتسوية قضايا المواطن، بل تملي على المواطن مهمة حماية المجتمع المحكوم بدمستور. إن روح المواطننة لا تسير، من حيث المبدأ، يدأ بيد مع الولاء المسبق لطائفة أو جماعة أثنية أو ثقافية، بل قد تكون نقضاً لهذا الولاء حين يكون مغلقاً وحصرياً. لكن الممارسة الانتخابية في العراق أنتجت حتى الآن موائمة بين الولاء للجماعات الفرعية والخيارات الفردية الوعائية للناخبين، فصار الأول

حاضناً للثانية من دون أن يترتب على ذلك مصادرة حق الفرد أو مسؤوليته. وهذه الحالة التي ليست فريدة من نوعها، تستحق التوقف عنها، سيما وأن هناك، في أكثر النظم الديمقراطية عراقة، أحزاباً أو حركات تناهى باحتواء المواطننة ضمن حدود ثقافية أو أثنية عازلة.

٤- مغالطة إسقاط سياق على آخر، حيث تؤخذ الديمقراطية كوصفة جاهزة قابلة للتصدير. لا يكفي مثلاً أن تتوفر حكومة منتخبة، ومجتمع مدني ناشط وشركات متعددة الجنسيات لقيام نظام ديمقراطي. وتجارب "الهندسة الاجتماعية" من هذا النوع لا تأتي إلا بنتائج عكسية على المجتمع وعلى المشاريع "الثورية" لمقرنته. وليس سوى عقلية براغماتية سطحية، كالتي تتبعها الإدارة الأمريكية، بوسعيها الامتنان إلى أن نشر الديمقراطية سيخدم غاية أبعد منها كمكافحة الإرهاب. والأرجح أن المعركتين ستنتهيان بالخسارة، ولو كانت الديمقراطية هي المرغوبة بذاتها لأقتضى الأمر تهيئة شروط تحققها، وهو لم يحصل كما ينبغي في الحالة التي نتكلم عنها.

إن التفكير في هذه المغالطات في سياق الحالة العراقية يقودنا إلى استخلاص دروس عملية من قبيل أن حس المواطننة لا يقاس بالتجزد من الإنحيازات الجمعية، بل بقدرته على تبني إختيارات مختلفة إستجابة لقضاياها فعلية أو قناعات مستجدة؛ وأن الديمقراطية أبعد عن أن تكون مجرد وسيلة محايدة لتنظيم الصراع السياسي وعلاقة الدولة بالمجتمع، لأنها أساساً مبدأ للحياة الاجتماعية والسياسية. بالأحرى، إنها ثقافة تدعو لسيادة الشعب في تحرير شؤونه، وضمان سلطة القانون والتضامن الطوعي بين مواطنين أحراز. ولذلك فهي قرينة بالمجتمع الحديث الذي فسره ماركس بالرأسمالية، وفسره أوغست كونت بالصناعة، في حين فسره آليكسي دي توكييل في الثقافة الديمقراطية القائمة على المساواة في الشروط الاجتماعية وتمتع جميع الأفراد بحق إشغال الوظائف والمهام وحمل الألقاب

وجني الإمتيازات، أي أنها ثقافة تتقاطع مع قيم النبلة الاستقرائية والمراتبية الدينية؛ وأخيراً، لأن الديمقراطية تقوم على الخيار الحر للمواطن والمساواة وتعدد مصادر السلطة، وضمان حقوق الأقلية، فهي مشروع متحرك. ويعني هذا، من حيث المبدأ، أن قيمتها تتبع من عملها، فهي تقوض أسوار السلطة والتقاليد تارة، وتعيد تشكيلها أو ترد الأعتبار لها تارة أخرى. لكنها في الحالتين تنتج قيمًا مضافة بهيأة قضايا ومشاكل وفرص جديدة لا تتيحها النظم الشمولية الميالة بطبعتها إلى الجمود.

هوية بإطار مفتوح

الصراع الجاري حالياً في العراق بين قوى دينية وطائفية وقومية، وبينها وبين الوجود الأمريكي هو، في جوهره، صراع على المسألة الوطنية. إنه صراع حول ماهية المجتمع السياسي الذي ينبغي إقامته، ومستقبل الدولة الوطنية، وعلاقة الأطراف بالمركز، ومفهوم السلطة والمواطنة، والحقوق والحريات، وتمايز المجالين العام والخاص. والموقف من المسألة الوطنية يتصل إتصالاً وثيقاً بتحديد الهوية الوطنية التي تتعدد حولها الإجابات وتتباين. فهناك من ينظر إليها من زاوية حضارية تمسكاً بالأصالة، ومن ينظر إليها من زاوية سياسية أو فكرية مجارة للمعاصرة. والمعروف عن أمر هذا الإختلاف المتجسد في ثنائية الجماعة الراسخة الجذور، والمجتمع المتشكل في إطار دولة - ورثتها عن الإستعمار وسادتها أيديولوجيات حديثة عجزت عن انجاز وظيفتها في التعبير عن الإرادة العامة ودمج المجتمع في إطار سياسي مستقر - أنه لم يحسم حتى الآن. فلا وجود للتراث المادي والروحي، ولا وجود للأفكار السياسية الحديثة بعد سبباً كافياً لنشوء أمة ذات هوية محددة. ويبدو الآن جلياً أن فكر النهضة، الذي وصل العراق متأخراً، لم يصنع نهضة فعلية عندنا وعند سوانا من شعوب المنطقة لسبب قد يعزى إلى رؤيته المقتصرة على إصلاح أمور الدين دون سواها، وأن الأيديولوجيات السياسية من ليبرالية وإشتراكية وقومية ظلت تدور في حلقة أسبقية الدولة على الأمة أو بالعكس دون أن تتمكن في النهاية من وضع مركبات دولة حديثة راسخة ذات مشروع سياسي، تاريخي وحضاري.

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية النظرية فإن سؤال الهوية ينحو عادة للإمساك بشيء ثابت فيما حين نكون، كما هو الحال غالباً، منغمرين في لجة الإختلاط والتدخل مع الآخرين، أو لاستدراك وجودنا حين ننساه بين الموجودات الأخرى حولنا. لكن

ما العبرة من فعل الإمساك بالهوية أو إستدراكيها؟ لماذا نحتاج لأن نكون متماثلين مع إنفسنا في عالم متغير أبداً؟ هل ترافق الهوية المحافظة على صورتنا الأصلية، والإختلاف التفريط بها؟ ماذا يعني إختلافنا عن بعضنا؟ ولمن؟.

هناك رأي يقول إن الهوية معطى طبيعي يأتيها من الماضي ويشكّلنا، جماعات وأفراداً، بطريقة لا نقوى على تغييرها أو الإفلات منها بقوة الوعي أو اللاوعي. وهناك رأي آخر يعدها تركيباً إصطناعياً لا يمكن أن يكون إلا مؤقتاً بحكم كونه نتاج شروط مادية ومعنىوية متبدلة. كيّفما نظرنا إلى الأمر، من المؤكد أنه ليس هناك مستوى واحد للهوية تختزلها في موروث ثقافي أو ديني أو رابطة دم (القرابة) أو تضامن مذهبي أو مللي. للهوية مستويات متعددة تتّبّع للمرء أن يتماهي حيناً مع إرث ديني أو حضاري، وحينما آخر مع نظام للإجتماع السياسي أو مشروع تاريخي. والأرجح إن الهوية تتحقّق من توسيفة تضم تقاليد الماضي وشروط الحاضر وأفق المستقبل. هذا على مستوى حياة الجماعة، أما على مستوى التجربة الحية للأفراد فإنّها تتشكل بدرجات متفاوتة من الوضوح والصلابة. وبيان ذلك أن صورتها الثابتة نسبياً عند الجماعة تتجلّى عند الأفراد كطيف من العناصر المتمايزة تتناسب تدرجاته وحساسية كل فرد ونسجه الروحي. ولعل هذا أجمل تجلّ للهوية لأنّه يرافد التنوع وحرية الإختيار والتجدد.

قلت إن فكرة الهوية تستدعي إلى الذهن مباشرة مبدأ الثبات لأنها تلك النقطة التي ننوب إليها في آخر المطاف ككتائن فاعلة ذات أدوار متعددة في مجالات الحياة ومسالكها. والثبات هنا، في حقيقته، نقطة متخللة ذات جاذبية عالية للفكر والوجودان، نقطة ترافق اللاوعي الاجتماعي الذي نواصل من خلاله الإنتساب إلى جماعة موحدة ومنسجمة مع نفسها. الثبات، في بعده الاجتماعي، عماده العصبية، أي لحمة الجماعة المتماسكة، وسطوة الولاء والتضامن وأسبقيّة الغير على الأنّا. والهوية الثابتة تُوقف مصير الفرد لخدمة

الجامعة، وتُعمل موقعاً غيرياً أو نكران الذات في سبيل هدف أسمى يُسجل في رصيد الجماعة مهما صغرت أو كبرت.

غير أنه يمكن النظر إلى الهوية كنفيض للثبات، أي تشخيص أطوارها وحالاتها المتغيرة عبر نقلات التاريخ وتحولاته وصراعاته. الهوية هنا ليست تكراراً لمعطى سابق حتى لو بدت أنها إستعادة حرفية له. وبيان ذلك أنه ليس هناك حامل خالص وشفاف لذلك المعطى، وأن سياق الفعل المستعيد أو المكرر للهوية لا يظل هو هو لأنه مشروط بمكان وزمان محددين. فالسياق مختلف ومغاير لنفسه في كل مرة نأتيه فيها. الهوية، في هذه الحالة، إمكانية مفتوحة تستوعب ولا تقصي، تجذب ولا تطرد. لذلك تصح مقارنتها بتصور متداول للديمقراطية والمواطنة يركز على العنصر الجاذب فيهما على حساب العنصر الطارد. وكما أن الديمقراطية والمواطنة تستوعب الآخر ولا تقصيه فتكون قابلة للإتساع دائماً، كذلك هي الهوية. فهي، وفق هذا التصور، حصيلة شبكة علاقات فعلية، وأفق يفضي إلى ما هو غير متحقق بعد. إنها إقامة في العالم تتبذّل كل ما هو حصرى ومقيد، وغاية لا تبلغ ذاتها، ومشروع متجدد يعيّد فهم الماضي ويتجاوزه مرّة تلو الأخرى. هكذا هي الهوية: بداية دائمة وجدل لا ينقطع. وهكذا ينبغي لها أن تتجسد في العراق اليوم كي تطلق صراع الواحد والكثرة، وتعيد تشكيلنا ككائنات سياسية وكذوات ثقافية.

طريق الحداثة الطويل

لعل الدرس الأساسي الذي يمكن إستخلاصه من العقبات التي تواجه الديمقراطية وتشظي الهوية الوطنية، هو أن الطريق نحو الحداثة، التي نفهمها كفرصة تاريخية متجددة ذات إحتمالات مرنة، غير معبد ولا حال من الإلتواء والمسارات الفرعية. والذي حصل في بلدنا عقب إسقاط الديكتاتورية في ٢٠٠٣، وأسقط في أيدي الكثرين من دعامة المشروع الحداثي، كان أشبه بحال من أراد أن يغير عملة بأخرى فحصل على عملة ثلاثة لم يقصد الحصول عليها. كم يسيراً التخيل بأن إزاحة الديكتاتورية ستفضي إلى نقاضها المباشر الذي هو الديمقراطي؟. في واقع الأمر، ظهرت عندنا ملامح نظام ليس فيه ديكتاتور لكنه مؤسس على القوة والعنف وتهديد الحريات، نظام غير عن إرادة الأغلبية المصنفة ولاءاتها على الهوية، والمنجذبة لخطاب شعبي يغزو به المجتمع الدولة، ويخلق الفوضى دون أن يؤمن الإستقرار..

وهذا يدعو للتأمل، فالعملة الثالثة التي أشرت إليها آنفاً تعكس ما للموروث الثقافي من تأثير في تشكيل الرؤى والخطابات السياسية المعاصرة. لقد صار الثقافي مورداً للسياسي لدى نظم وحركات في أغلب بلدان منطقتنا. ولئن فضلت سابقاً هوية هذه البلدان إلى شقين واحد موروث شبه ميت، والأخر وافد وفاعل وظفته لصالحها الأيديولوجيات السياسية العلمانية، فقد عادت الأمور للإندماج لتصبح الهوية الثقافية مشروعًا سياسياً عند الحركات الإسلامية التي نشطت في العقود الأخيرة.

يمكن النظر إلى التمسك بالهويات الدينية والطائفية والإثنية على مستويين: سياسي ونظري. يعكس أولهما عجز الفكر الديني والطائفي عن تصور الإجتماع السياسي

كإجتماع مدني أو جمهوري يستند على المواطنة والمساواة. لذلك نراه يستعين بمنطق مجرّب ومضمون لحيازة السلطة يقوم على التفرقة والتّمثيل الحصري لجماعة دينية أو مذهبية أو عرقية لكسب شرعية سياسية تدّعي نقض حالة ظلم سابق أو خلق توازن جديد للسلطة. ولتن سلمنا بأن المطالبة بالتمثيل العادل مسألة سياسية وليس مهابة دينية أو طائفية، وأن سياسة الحقوق لا يمكنها أن تطمئن الجماعة دون أن تطمئن الأفراد، فإن من الضروري فهم الأسباب الإجتماعية والثقافية والنفسية الكامنة وراء هذا المنطق. إن الواقع، في حالة كهذه، ينطق بصوت أعلى من صوت الأفكار والتصورات الجاهزة! وهذا ما يؤكد ملاحظة ماركس الثاقبة بأن الناس لا يصنعون التاريخ على هواهم، بل عبر شروط موضوعية قائمة... فالوجود الذي يسبق الوعي هو ما يحدّد نوع الأسئلة المطروحة على الناس والطريقة الممكنة للإجابة عليها..

أما بعد النظري، فله دلالة عامة تشمل العالم المعاصر بأسره، ويرجع إلى تشكيك متداول بالمفاهيم الأساسية للحداثة كالتحرر الإنساني الشامل، والتقدم التاريخي ذي الاتجاه الواحد والعقلانية العلمية. فالقراءة النقدية لظاهرة الحداثة وعلاقة الغرب مع بقية العالم ركزت على ما أفرزتها من عواقب سلبية وخيمة على البشرية ككوارث الحربين العالميتين، وأضرار العقلانية الأداتية المتشبّثة بالوسائل على حساب قيم الحياة الأساسية، وأثار التجربة الإستعمارية المريدة. نتيجة لذلك، وللتطورات العاصفة التي يمر بها العالم، انفسح المجال لمراجعة مسلمات العقلانية الأولية المترسّكة على ذاتها، والأخذ بالتفكير النسبي بقصد المسارات المتنوعة للتطور التاريخي. وأدى ذلك، بالطبع، إلى إيلاء قدر كبير من المرونة واللاقطعية في فهم صلاحية مفاهيم النظرية الحداثية، ورد الاعتبار لنظومات الأفكار والقيم الخاصة بالمجتمعات التقليدية أو ما قبل الحداثية، ونبذ المصادرية والتعوييمات التي تعتمد المقايسة الظاهرية بين المجتمعات والمعتقدات، وأخذ تأثير السياق

اللموس والمكناط والوسائل المتاحة بنظر الاعتبار. ما يهمنا من ذلك هو التأكيد على الحاجة إلى النظر إلى الغايات المجردة من زاوية تاريخية وجدلية، لأنها غالباً ما تتتحقق بأشكال متباعدة، ولا تقتضي وجود حامل تاريخي واحد لها طالما أنها ثمرة صراع قوى متعددة.

والفكرة الأخيرة تمضي، إلى حد ما، بإتجاه ما لاحظه يورغن هابرمانس في بداية كتابه "الخطاب الفلسفى للحداثة" من إمكانية نشوء حادثة محافظة، في الغرب كما في الشرق، تفصل التحديد المادي عن فكرة الحادثة ذاتها. وعدم التساوق هذا يتبع استخدام منجزاتها - من تكنولوجيا ووسائل ونظم عمل - دون تبني نظرتها إلى العالم. وإمكانية كهذه تعكس درجة التعقيد الذي يكتنف الحادثة التي اعتبرها هابرمانس مشروعًا غير مكتمل يقبل الإرتداد والحلول الوسطية، دون أن يكف عن إعادة النظر في مسلماته عن التاريخ والطبيعة والمعرفة.

هنا ينبغي أن نتوقف لنختتم هذا المقال. فالقول بأن فكرة الحادثة أصبحت رخوة بحدود نراها أو نتخيلها، يعني تجاوز التفكير الأصولي بها الذي يراها قائمة على جوهر ثابت وأساس عميق، وبالتالي صالحة بالدرجة نفسها لجميع المجتمعات والأمم. من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الديمقراطية التي هي إحدى تجليات المجتمع الحديث، على إنها مجرد مجموعة آليات لتنظيم الصراع السياسي تأخذ شكل المجتمع الذي تطبق فيه. وهذا الموقف يجد تبريره في عالمنا الراهن حيث الوسائل والتوليفات الهجينة غدت غاية ما بعدها غاية. وبما أنه من غير الممكن حسم النقاش النظري حول ما إذا كانت الديمقراطية وسيلة أو غاية، وحول شمولية مبادئها أو نسبيتها، نعتقد أن من الأرجى عملياً إفتراض وجود بعد قيمي للديمقراطية حتى يكون لها تأثير مغير في المجتمع. هذا البعد القيمي الذي يتبع الفصل والتمايز بين الدولة والمجتمع، بين مكونات السلطة، بين الحياة الخاصة وال العامة،

وبيـن الدين والسيـاسـة، سـيـحفـز حـرـكـة المجتمع وـيـدفعـه نحو الرـقـي والتـقدـم ولـذـن أـظـهـرـ الـوضعـ عـنـدـا الـيـومـ خـرـافـة تـصـبـيرـ الـديـمـقـراـطـيةـ وـيـؤـسـ الـعـلـمـيـةـ الـإـتـخـالـيـةـ حـينـ تـعـهـدـ الطـرـيقـ لـهـيـمةـ جـمـاعـةـ عـلـىـ أـخـرـىـ، فـلـنـ ذـلـكـ لـيـسـ مـبـرـأـ لـبـحـثـ عـنـ حلـوـ شـكـلـيـةـ قـصـيـةـ الـمـدـىـ تـنـتـهـيـ بـالـفـشـلـ عـلـىـ عـلـىـ. فـيـ الحـقـيقـةـ، إـنـ الإـقـارـ بـالـبـعـدـ الشـامـلـ لـبـادـعـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ سـيـسـهـلـ منـ الـفـلـاحـيـةـ الـعـلـمـيـةـ، تـوـطـيـنـهاـ أوـ تـأـصـيلـهاـ فـيـ مجـتمـعـنـاـ..

كـذـلـكـ فـالـقـولـ بـأـنـ الـعـوـنـةـ لـىـ رـحـمـ الـهـوـيـاتـ التـقـاـفيـةـ وـالـأـثـنـيـةـ هـيـ سـمـةـ الـعـصـرـ، يـتـضـمـنـ بـجـانـبـ الـاعـتـرـافـ الـمـبـدـئـيـ وـالـمـطلـوبـ بـحـقـ التـنوـعـ وـالـتـعدـيـةـ، صـعـوبـيـاتـ فـعـلـيـةـ فـيـ رـسـمـ حدـودـ الـإـعـتـرـافـ سـيـاسـيـاـ، وـقـدـ يـقـلـصـ مـنـ فـسـحةـ التـسـامـحـ فـيـ الـبـلـدـانـ الـمـتـطـوـرـةـ نـاتـ النـظـمـ الـلـيـبرـالـيـةـ. أـمـاـ فـيـ الـبـلـدـانـ الـحـدـيـثـةـ النـشـأـةـ وـالـمـتـنـوـعـ الـمـكـوـنـاتـ فـيـاهـ يـجـلـبـ لـنـقـصـامـلـ دـاخـلـيـةـ وـيـفـتـحـ حـقـوـلـ تـنـزـاعـاتـ يـصـعـبـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ، وـقـدـ تـنـهـارـ بـفـعـلـهـاـ دـوـلـ وـتـحلـ مـطـلـهاـ أـخـرـىـ. هـذـاـ مـاـ حـصـلـ فـيـ يـوـغـوـسـلـاـفـيـاـ فـيـ بـدـاـيـةـ التـسـعـيـنـاتـ، وـمـاـ قدـ يـحـصـلـ الـيـومـ فـيـ الـعـرـاقـ، معـ فـارـقـ مـهـمـ هـوـ أـنـ جـمـيعـ الـأـطـرـافـ الـمـسـاـهـمـةـ فـيـ الـحـالـةـ الـأـخـرـيـةـ مـرـشـحـةـ، عـلـىـ الـأـرجـحـ للـخـسـارـةـ.

لـيـسـ هـنـاكـ فـيـ الـعـرـاقـ بـدـيـلـ أـفـضـلـ مـنـ الشـرـاكـةـ لإـعـادـةـ بـنـاءـ الـدـوـلـةـ الـو~طنـيـةـ المـتـعـدـدـ ثـقـافـيـاـ وـأـثـنـيـةـ، وـلـيـسـ هـنـاكـ بـدـيـلـ عـنـ تـقـيـيدـ التـسـيـسـ الـمـفـلـتـ لـلـهـوـيـاتـ الـفـرعـيـةـ. فـالـهـوـيـةـ الـو~طنـيـةـ، وـالـحـالـةـ هـذـهـ، تـسـتـلـزـمـ تعـزـيزـ عـلـيـةـ الـدـوـلـةـ، أـيـ تـمـكـنـ الـدـوـلـةـ مـنـ إـحـتوـاءـ مجـتمـعـ مـتـعـدـدـ الـهـوـيـاتـ وـالـأـعـرـاقـ، وـتـحـدـيثـ الـوـلـاءـاتـ التـقـلـيـدـيـةـ الـثـقـافـيـةـ وـالـأـثـنـيـةـ. وـهـذـاـ يـعـنـيـ إـرـسـاءـهـاـ عـلـىـ ثـقـافـةـ سـيـاسـيـةـ مـدـنـيـةـ مـصـدـرـهـاـ إـلـاـنـسـانـ كـوـجـودـ وـقـيـمةـ، وـحـقـوقـ الـجـمـاعـاتـ الـمـخـلـفـةـ، ثـقـافـةـ تـعـاـقـدـ وـتـعـاـيـشـ تـنـسـعـ لـلـتـنـوـعـ وـالـخـصـوـصـيـاتـ الـمـلـحـيـةـ. أـمـاـ الـلـجوـءـ إـلـىـ الـطـرـيقـ الـمـعـاـكـسـ، عـبـرـ الـإـعـتـقـادـ بـأـصـلـ نـقـيـ وـذـاكـرـةـ مـتـجـذـرـةـ فـيـ الـماـضـيـ، فـيـتـقـاطـعـ مـعـ تـلـكـ الـثـقـافـةـ الـسـيـاسـيـةـ الـمـقـصـودـةـ أـوـ لـاـ يـصـبـ مـبـاشـرـةـ فـيـهاـ، وـقـدـ يـشـوـهـ الـهـوـيـةـ الـخـاصـةـ ذاتـهـاـ الـأـنـهـاـيـةـ

جميع الأحوال صورة متخيلة عن الذات، قبل أن تكون حقيقة فعلية. إذا كان تشكّل ثقافة سياسية كهذه في عراق اليوم أمراً غير مؤكّد، فإنّها تظلّ، مع ذلك، رهاناً حقيقياً للمستقبل.

الثقافة الجديدة (٣٢٠) للعام ٢٠٠٧

رومانтикаية..... ولكن؟؟

هل تنتظر المرأة إلى العالم نظرة رومانتيكية؟ أتساءل بعد أن قرأت مؤخراً مقابلة مع شاعرة اسكتلندية وصفت نفسها بأنها مولعة إلى ما لا نهاية بحب الأشكال الجميلة للطبيعة وبنية الكون في حين وصفت العلم والتفكير الوضعي بأنهما يختزلان العالم إلى معادلات مجردة ويصورانه وفق نموذج ميكانيكي خال من أي عمق داخلي.

شيء من هذه الحساسية إزاء المخطط المادي البحث للعلم بشرت به الحركة الرومانستيكية قبل قرنين من الزمن، حين أرادت أن تنتصر لأمرتين: العالم الفردي للإنسان، وعلاقة الجذب والتفاعل التي تربطه بالطبيعة. فالفرد كما تراه، هو روح ومشاعر وليس مجرد آلة اسمها الجسد. والطبيعة هي أشكال وألوان وتفاصيل وليس مجموعة قوانين صارمة بهذا المعنى، حيث تأتي الحياة والمشاعر قبل الأفكار والمفاهيم نستطيع أن نعد نظرة المرأة إلى العالم قريبة من هاجس الرومانستيكية، لكنها لا تحتكر لوحدها هذه النظرة، إذ لا يصح هنا التمييز على أساس الجنس، ولا المقارنة بين قرب المرأة من نبض الطبيعة والتعبيرات الأدبية والفنية الرومانستيكية التي كان اغلب أبطالها من رجال تولهوا بحب الطبيعة ومجدوا فضائلها، واستغرقوا في أسرار جمالها. ولهم في ذلك شواهد لا تحصى في الأدب والفن الأوروبيين.

المرأة إذن رومانتيكية لكن بمعيار آخر يمكن تشخيصه في الموقف من المعرفة العلمية إجمالاً. فإذا صح القول أن قليلاً من الناس اليوم يرفض العلم دفعه واحدة، فإن عدد أولئك الذين يقبلونه جملةً وتفصيلاً لا يفوقونهم كثيراً.

كما يبدو ثمة طریقتان لفهم العلم، إحداها تعتمد المنطق والتحليل والنظام والنظرية والفعل، والأخرى تهتم بالشعور والحدس والرؤیة الكلية والألفة والترابط. وإذا صح ارجاع الأولى إلى الدافع الذکوري المستند على مبادئ القویة والاقتحام، فان الثانية تفسر بالدافع الأنثوي النازع إلى الأمان والانسجام. هذا التميّز تفترضه علينا العالمة الأمريكية ليندا جین شيفرد في كتابها (أنوثة العلم) الذي تتقصى فيه الوجه الآخر للعلم حيث تتبيّح الأنوثة بديلاً يساعد في إبراء جروح كوكبنا المتمثلة بتدمير البيئة، أسلحة الدمار الشامل وبسط الهيمنة على الآخر المختلف.

التميّز المذکور يبدو للوهلة الأولى معقولاً، بيد انه ليس تمیزاً جوهرياً وثابتاً. فلا المرأة بذاتها (ولا الرجل كذلك)، تمتلك تلك الصفات بمعزل عن نظام الاقتصاد السائد، وهو الاقتصاد الرأسمالي على وجه التحديد، وعن نمط العقلانية الإداتية المعمول به لفك معادلات بهدف السيطرة عليها أو اكتساحها. الشروط وال العلاقات العامة التي تصنع نسيج الحياة والثقافة هي صاحبة الكلمة الفصل وليس الاختلافات الفيزيولوجية أو البيولوجية. وبعد هذا فلا جدال في أن المعرفة التي تؤلّد السعادة والمتعة هي المطلوبة إزاء تلك التي تؤلّد الجفاف والكآبة. هذا الاختيار دون شك، هو الأكثر إنسانية.

عودة من المنفى

عدت إلى العراق قبل عامين، تاركاً ودائني قرابة خمسة وعشرين عاماً من الهجرة القسرية. تلك العودة إلى ما حسبته ملذتي الآخر أو الآخرين، علتها لنفسي بأن فصلاً من حياتي صار ماضياً ينبغي طيّه فطويته، وأن فصلاً آخر قد فتح إحتمالاته، على مصراعيها، أمامي فاستجبت إليه. لم أقصد أن أكون مغامراً حين مضيت في رحلة العودة التي لم أتخيلها منذ البداية نزهة في عالم الأحلام، ولم يأخذني إليها حماس رومانتيكي. لقد شعرت فقط بأنني مدعو لرحلة نحو المجهول، وفي ذلك يكمن سر أنجذابي إليها.

رحلة العودة وضععني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم أكن أعي دلالاتها أو أقدر أبعادها، وحررتني من الارتباط بمكان محدد على حساب الزمن الخاص للتجربة الذاتية، وأوقفتني بعيداً عن الأفكار المجردة حول التاريخ العام لاكتشاف تنوع التاريخ المحلي وتعقيده والتواهه. ومن يبحث، يجد! بجانب التجربة الفعلية والتاريخ الحسي، وضععني هذه الرحلة وجهاً لوجه أمام موت جارف، وشيك وعبثي. لا اعني هنا بالطبع أفكاراً أو أخيلة أو هواجس تستبق حدث الموت الرهيب، بل حقائق ملموسة يمتزج فيها الموت بالحياة ويتلازمان في كل لحظة

الموت في مدينة كبغداد يسعى إلى الناس مع كل خطوة يخطونها، فيما تتواصل الحياة مذعورة منه أحياناً، ولا مبالغة إزاءه في أغلب الأحيان. ما أكثر لافتات الموت السود في المدينة؟ كم من الناس واسيت بفقدان أب أو ابن أو أخ أو قريب؟ كم مرة قصدت مجالس التأبين معزيماً؟ كم مرة وجدت نفسي عاجزاً عن إظهار تعاطفي مع ذوي الضحايا البريئة المجهولة لي؟ كم بكيت في سري حزناً على مشاهد الدماء المسفوكة في كل مكان؟ بعد هذا

الإنغمار المكثف في وقائع الموت وأخباره، يسألني بعضهم أحياناً، لا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الواقد أخيراً إلى دوامة العنف المستشري، أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثاراً شخصياً مني، وأعلم أنني أخشى بغيري زتي الإنسانية لحظة الموت حين تأتي بالطريقة الشنيعة التي تأتي بها، وأعلم أنني قبل ذلك كله كثير القلق على مصير أخي ومراافقي الذين بملازمتهم لي في سكوني وحركتي يجازفون بحياتهم وحياة عوائلهم. برغم ذلك كله، وبمقدار ما يتعلق الأمر بمصيري الشخصي، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضي.

وما فعلت ذلك كما يفعل أي إنتشاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت. وهذه الحياة ينبغي ألا تكون بالضرورة آمنة شرط أن تشبع الرغبة في الوجود والفعل والإنغمار. منذ سنوات وأنا أعتقد، ربما بعد قراءة جان بودريار، بأن النهاية حاصلة في الحاضر. إنها تلازمنا في كل لحظة تعيشها. وحين ندرك ذلك، لا يعد هناك ما يستحق الانتظار. غير أن تسليم النفس للنهاية ... ليس استسلاماً، إنه بداية السير نحو التخوم أو بينها هناك حيث تتقلص المسافات.

عليّ أن أعترف بأنني لم أكن غير مكترث بالموت دائماً. وبعد إغتيال بشع لأحد الرفاق في شقته، صرت للمرة الأولى أنام وبجانبي مسدس جاهز للإطلاق. الأسلوب الشنيع لتعذيب ذلك الرفيق والتمثيل الوحشي بجسده، تركني لليال عديدة عرضة لكتابيس مرعبة. أي إرادة تمكنتني من إيقاف انتقالات العقل الباطن، والتثبت غير الواقع بالحياة؟ عندما أتخيل الآن الحدود الدنيا والقصوى لهذه التجربة، أجد نفسي مسكوناً بروح متقطفة... روح بالحد الأدنى تقبل الواقع كما هو، ولا تسند لنفسها سلطة معرفية كبيرة أو تسقط عليه أوهامها أو تجرفها إحتمالاته القصوى.

هذا كما أعتقد ثمن الاقتراب من التاريخ كمادة حية، كحالة هشة في طور التشكل والاندثار. فلا تجربة حقيقية دون تفاصيل جزئية وملمومة.... دون إزاحة أو تأجيل. للعودة من المنفى، في حالي، سبب عاطفي أكيد. إذ وجدت نفسي في علاقة لا أقوى على إستبدالها أو تعويضها. إنها العلاقة مع الوطن كمجموعة من البشر، والتقاليد، الأمكنة، كفضاء من ضوء وهواء، من فوضى وخراب وألم. بعد أن جربت هذه العلاقة صرت متيقناً من جدواها ومعناها بوصفها حقلًا للممارسة اليومية والفكيرية، لكنني لم أزل أشك بأن حب الوطن من صنف الفضائل!

فقد يهيم المرء حبًّا بوطنه، المصنوع من صور وخيالات، وهو بعيد عنه، وقد لا يقيم لنفسه علاقة إلخلاقية معه وهو يعيش في داخله، وقد يخدم بعضنا الوطن من موقف متجرد إلا من الواجب الإنساني، وقد يدمره آخر يتصدق باسمه ليل نهار، ما هو ثابت في الوطن كأرض وتاريخ لا يلزم الجميع بالتماهي التام معه أو التساقط مع حركته وتحولاته .

وهكذا فإن ضعف الحماس للوطن أحياناً لا يدخل في باب الرذيلة أو الخيانة. الوطن محطة في حياة الإنسان تتفرع منها جميع المحطات الأخرى التي قد تؤدي إليها أو لا تؤدي، لكنها تحكمنا، بقوة شبه قدرية، بأن نظل متعلقين بها رمزيًا حتى لو هجرناها فعليًا، أن نظل مشدودين إليها بقراة دم حتى لو أودعنا مصائرنا خارجها ليس في عودتي من المنفى نكوص نحو الماضي، استبدال نمط حياة "متخلف" بآخر متطور، تفضيل عالم عنيف حذ الهمجية على عالم مهذب ومحض، وهجر السلامة والأمان لإرتياح مكان مجهول في "قلب الظلام"... ظلام التاريخ إذا كانت هناك عودة بالنسبة لي فهي مغادرة تجربة استندت نفسها تدريجيًا، كسر شرط حياتي غداً عاديًّا بغية إكتشاف ما هو غير مألوف أو مضمون. هذه الهجرة

المعاكسة لا تفترض مسارات محددة، ولا ترتكز على ثنائيات ثابتة من قبيل الوطن / المنفى، الداخل / الخارج، الشرق / الغرب، الهوية / الآخر

وهي كذلك لا تفترض حركة بشوطين واحد للذهاب وأخر للإياب كما توحى قراءة رحلة يوليسيس التي يعدها بعضهم الصورة النمطية للسرد، ولا تأخذ طابع علاقة مغلقة للنفي ونفي النفي والتركيب. فلرحلة النفس في الزمن مستويات عدّة وتفرعات شتى ولأنها مقبلة دائمًا على أفق مفتوح يمكن أن يمضي بها العدّ إلى أكثر من ثلاثة مراحل .

عدت إلى العراق قبل عامين، لأدرك أنني بلغت غاية ما صبّوت إليه: انهاء شعوري بالسلام من الإكتفاء بعد سنوات الهجرة، من البقاء بعيداً عن وطن طالما تخيلته جميلاً وأنيساً برغم جنونه وقسوته، ونزع ثوب الغربة عن نفسي لأرى الواقع كما هو عارياً من أغفافه وبريقه، النطق بلغة المقيم في الوادي لا المتطلع من أعلى التل، والتعايش بأدنى التوقعات مع مواطن البؤس والغرابة والقصوة

عدت إليه فوجدته يمضي في متاهة تاريخية، لا يمكنها أن تكون إلا مؤقتة. وأن أحد شهودها: أعيش تذبذباتها، أرقب تقلباتها، أتفاعل مع تفاصيلها، وأثير أسئلة حولها، وأراجع قناعات بشأنها، وأكون حكاماً عنها. أنني منغمر بتجربة غيرت حساستي إزاء كل ما يحيط بي. فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المسбقة والمقارنات الجاهزة والرغبات التي تعظ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء.

وبيرغم أن الحلم السياسي الذي أسرني ظل هو هو ، صرتأشعر بالقرف من كل خطاب سياسي يعمد إلى إجتاز عذابات الضحية، التنكر من المسؤولية عن الماضي، إستغلال الرضوض النفسية التي تستفز الأحياء أو تخطف منهم وعيهم. كل ما أبحث عنه وسط هذا الضجيج الزائف هو الهدوء، الصدق، ورفعه الشأن العام، العراق فتح ذهني وقلبي لسيطرة الحاجة الآسرة القاسية على ناسه. وهو، كما يبدو لي الآن، حالة مثالية لفهم ما يجري في العالم بأسره. فلأنه بلغ القاع صار يتيح، بشكل أفضل، رؤية منابع الحروب

والهمجية والمصالح الأنانية، الكذب والفساد والعنف والنسيان المتعتمد للحقيقة أو السهو عنها. كل، من موقعه، مهوم بالعراق ومتورط فيه: أميركا العظيمة التجربة والسطحية، الديمقراطيات الغربية المرتبكة، الشعوبيون من كل الأنواع، حاملو الشعار اليساري، اليمينيون والمحافظون، العروبيون، الأصوليون، تجار الموت، رجال الأعمال، حاملو الولية العصبيات الخادعة.....

كل خبر يأتيني عن بؤس هذا العالم وتعاسته يحيلني الى "مستعمرة" سوء إسمها العراق.. هي درجة الصفر التي لا موقع لها على خرائط المكان أو مقاييس التجربة، لكنها تتبع، في الوقت نفسه، فهم أوجه الزيف في عمارة زمننا الماضي في مسارات مجهولة. عدت إلى العراق بعدها اكتشفت أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعى مرتبط بالجماعة، فلا فعل ولا حضور دون مشاركة وتضامن . عدت من المنفى وأنا مدرك أن لا عودة لي منه لأنه يجدّ نفسه في كل تماส مع ما هو مأثور أو غير مأثور. وسوف تلزمني أشباحه كما لازمتني أشباح الوطن.

كل إنسحاب من المنفى تعميق لجذوره وتمويله لخفاياه. أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن؟

المدى، تشرين الثاني، ٢٠٠٥

العراق... الآن، غدا

متأملًا حالة العراق الراهنة، أجدهني أقرب إلى رأي من يعتبر أن المفاجآت تأتي من الماضي لا من المستقبل. والماضي الذي أقصده هو الذاكرة الجمعية حين تنقلب على نفسها ف تكون سبباً للفرقة والتنازع ومسوغاً للانغلاق على الذات والريبة بالآخر هذا ما صرنا نلمسه في العراق المنجرف بتيار اللاوعي السابح فوق حركة التاريخ وأحواله المتقلبة، محرضًا ولاءات "طبيعية" تستثمرها أحزاب وحركات وتكلات سياسية محولة التضامن إلى أرضية للنزاع.

ولئن صح إرجاع الأمر إلى إرادة قوة وهيمنة منبتها الحاضر وحده، فإنه لا يصح برأيي النظر إلى معنى صراع الإرادات الذي نحن بصدده مجردًا من ذيول الولاءات "الطبيعية" الطائفية منها والعرقية والمناطقية التي توحد في إطارها الأفراد كأعضاء في جماعات متمايزية الخصائص ومتنازفة الغايات .

ولأن الماضي المستعاد لا يساعدنا على بناء أمة حديثة طالما جعل من العراق، الوطن والتاريخ والشعب، ضحيته الأولى، وي فعل فعلها فيه ليعيقه عن بلوغ حالة نظام جديد مستند على إجماع أشمل، ومطمئن لمصالح أعم، ونماذج إلى إحداث قطبيعة أعمق ليس فقط مع فكرة الحزب الواحد والقائد المخلص والرسالة الخالدة، بل مع إرثنا الثقيل من الفكر الاستبدادي المترافق من عصور غابرة.

في إثارتها للفتن والبلبلة تعادل الذاكرة نسيان التاريخ. لهذا، فلا ذاكرة الجلاد الناكر لمسؤوليته، ولا ذاكرة الضحية الناطقة بمعذلوميتها تعينا على تلمس الحقيقة الازمة لتأسيس اجتماع مختلف يحلو لنا وصفه بالديمقراطية ونراهن عليه لدفع الأمة للتخلق بالأخلاق المدنية الليبرالية .

وهذا برأيي لا يقتصر على العراق وحده لأنه ديدن ما يسمى بسياسة الذاكرة التي فتحت أبواب الأسئلة على الدعوات التحررية الإنسانية، وأشارت، في الوقت نفسه، المآذق أمام أي تحرر فعلي. إننا كدعاة قضية عامة اسمها العراق، إذ نلاحظ، بأسى شديد، كم تخذلنا الذاكرة المتشظية الميسية إلى أبعد الحدود، لا نستطيع أن نسقط الذاكرة من حساب تجربتنا الحية

ولو فعلنا ذلك لحرمنا أنفسنا من خزین تجارب ماضية تدعونا للتماهي معها من وراء ميلنا الحداثي الطاغي، وتعزز فيها قيمة الوعي بالمستقبل، وتتفتح فيها روح الأمل بما لم يتحقق بعد . حين نصنع مسالك مفتوحة بين الذي أتى والذي لم يأتي بعد، بين ما خبرناه وما لم نخبره بعد، نعيد للإنسان العراقي حضوره في الزمن، فنحرره من التسلیم الأعمى بالقدر والمحاکاة السطحية للماضي. متى ستحين تلك الإمکانية؟ من سيطرقها؟

صحيفة الصباح

دور المثقف

دور للمثقف يتبلور في مواجهة العنف والتبرير بقيم السلام والتسامح وهذه مهمة لا تنفصل عن ممارسة المثقف لدوره كمنتج ومبدع للقيم، مهمة المثقف في الظروف التي يمر بها العراق توحّي بدور تعبوي، قد لا يكون بالضرورة من أولويات ممارسته لوظيفته الإبداعية والفكرية، وفي هذه الحال فان رجال الإعلام والسياسة إذا ما صنعوا في خانة المثقفين يضطّلُّون بدور أكثر فاعلية، أو على الأقل أكثر مباشرة في التصدي لهمة يومية، كمواجهة العنف والإرهاب والتعصب والصراعات على الهوية الطائفية وحتى الدينية ان رجال الإعلام والسياسة ينطّقون بخطاب مباشر ساخن مستفيدين من وسائل الإعلام المتيسرة، والتي تصنع الرأي العام وتؤثّر فيه، لذا فإن هذا الدور لا يتحقق للمثقف دائماً، فبينه والقضايا اليومية الساخنة جدران من المواقف والتآويلات التي قد لا تنتج موقفاً صريحاً قاطعاً إزاء هذه القضية أو تلك، فالمثقف كونه مبدع القيم والأفكار، يهتم أولاً بدلاله الحدث وأبعاده، وبالتالي يوصل رسالة مختلفة تدفعنا لتأمل معطيات الواقع وقرارات الأفراد والجماعات وخياراتهم السياسية والاجتماعية، لتشخيصها على مستوى ما بعد المباشر للحدث، وهذه هي مهمة المثقف الأولى.

ولا تجد في المجتمعات الديمقراطية ظواهر تجنيد المثقفين في المعارك العامة، فاصطفاف المثقفين حول قضية أو غيرها نابع من اختيارات حرة، لا يصحّ نعتها بالإتكالية أو الانعزالية عن قضايا المجتمع.

المرايد التي أتخيلها

ان المرايد رئة ثقافية حقيقة في ما هو عليه، وفي ما يتبعه ان يكون عليه. ويعتني هنا ان أركز على الحكم الثاني لاتخيل المرايد منبراً لقراءات شعرية مفتارة بعنابة ومسافة برؤية نقدية صارمة تميز التجارب والاصدارات والاساليب والعالم.. حتى لكانك في كل مرايد تزور صالة من صالات متحف الشعر او ورشة من ورشه .

ولاتخيل المرايد طاولة لقراءات نقدية تهتمي بمناهج النقد الادبي الصرف بقدر ماتهتمي كشوفات النقد الثقافي الذي يعيينا إلى السياقات والافتراضات غير المصح بها في النص.

ولاتخيل المرايد مثل كتاب لأثر حي نقرأه كل عام فنديم عبره تفاعلنا مع الجديد الصاعد او القديم المنسى ..

ولاتخيل المرايد احتفاء بفنان تشكيلي كبير في معرض استعادى يعتد لاسبوع يزوره هواة الفن وطلاب الجامعة والمدارس .

ولاتخيل المرايد مسرحاً لعرض درامي فريد من نوعه .. او شريط سينمائى نسترجع صوره كلما تسمرت أعيننا امام الشاشة الفضية .

ولاتخيل المرايد إسماً لدار نشر بمواصفات فنية لا يبلغها أي كتاب ويطمح للمرور من بوابتها كل كاتب .

وأخيراً، لاتخيل المرايد مزاراً أو بالاحرى مطهراً تتلاشى فيه غربة المبدع في وطنه، وتتلقى فيه مسارات الثقافة المقيمة في الوطن وتلك المترحلة في المهاجر .

أهذه الصورة التي المتخيلة هي كل أفق المرايد التي لم تنجل بعد ؟

إعادة تعريف الفن حفاظاً على الإبداع

ألان سيفووي - دوكلو
ترجمة: كامل شياع

ما أن تبدأ المنازرات حول الفن المعاصر حتى تبلغ غالباً حالة من الفوضى، إن لم يكن حالة من الطعن والذم. ما الدور الذي يمكن للفيلسوف أن يلعبه هنا، من دون أن يجعل من نفسه بديلاً عن المختصين ونقاد الفن، حيث لكل واحدٍ من هؤلاء اختصاصه المحدّد؟ يمكن لتدخل الفيلسوف أن يجلب بعض الصرامة والوضوح النظري للنقاش. ينبغي علينا هنا أن نتحدى مبدأ التجانس. فبإسم هذا المبدأ، إفترض ديكارت خطأ عقلانية موضوع العقل العارف. أما معارضو ديكارت، فيرفضهم لعقلانية الواقع، زعموا بإسم المبدأ نفسه أنهم متحررون من جميع القيود العقلية. على وفق هذا النظرية، مرّ وقت طويلًّا منذ أن رفض علم الميكانيك الكمي، الذي فرض التجانس الجذري لموضوعها إرتباطاً بالتفكير العقلاني، اللغة الرياضية؟ ولم يكن مصيبةً في هذا تماماً... لكن أكثر عقلانية حين يكون موضوعنا أقل عقلانية، هذه هي الوسيلة الأسلم لكل منْ يحاول التفكير في الفن.

الفن والفنون:

يمر الفن المعاصر بأزمة. وغداً هذا أمراً مسلّماً به. وبينما، والحالة هذه، أن نفهم الأزمة التي تتحدث عنها. ان استمرارية هذه الأزمة تجعلنا نفترض أنها بالفعل أكثر أهمية بكثير مما كنا نعتقد عموماً. إنها، في الواقع، أزمة فهم نظري.

ولغرض إدراكتها بصورة أفضل، ينبغي على المرء أن يخرج من الإطار الضيق جداً للقرن العشرين. فالفن كما نفهمه أو بالأحرى كما لا نفهمه ما دمنا نكرر أنه غير قابل للتعریف، هو مفهوم حديث نسبياً. فقد ظهر، لأول مرة، في فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر.

خلال ما يزيد على مائتي سنة، إشتغل المنظرون على مفهوم واحد هو مفهوم التقنية (techne) اليوناني، الذي تُرجم إلى فن (ars) باللاتينية، و(art) بالفرنسية، وصارت يُشار إلى فن الرسم مثلاً يُشار إلى فن البناء أو فن إعداد الخبز. الفن هنا يشير إلى أي تقنية خاضعة لقواعد محدد يتطلب إتقانها تعليماً خاصاً. لذلك إنصب موضع الرهان الرئيس على عرفة ما إذا كان الفن حرّاً (بمعنى قمين بالإنسان الحر، وقابل لأن يمارس من قبل إنسان نبيل من دون أن يحط من قدره)، أو في المقابل، ميكانيكيّاً، فالحساب وعلم الفلك والموسيقى والشعر اعتبرت، بسبب تجريديتها، من ضمن الفنون الحرة، بينما اعتبر الرسم والنجارة والزراعة من ضمن الفنون الميكانيكية واليدوية. كان كل طموح أينارد دافنشي، لتأسيس الرسم على المنظور الهندسي، يكمن في رفع مكانة هذا الفن إلى مصاف الفنون الحرة..

غير أن الأمر قد تغير في فرنسا بحدود العام ١٧٥٠. فقد حصل فجأة أن فصل الرسم والموسيقى والنحت والشعر، بصورة جذرية، عن الفنون بشكل عام. وظهر هذا التمييز، بشكل خاص، في الاختلافات الدلالية التي أخذ بها في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٧٥٢ تحت مدخل الفنان والحرفي. خلافاً للحرفي، يتميز الفنان بامتلاكه العبرية. هذا المفهوم، ذو الأصل الإلاطوني، طرحوه المنظرون الفرنسيون بموازاة المفهوم الجديد للفن. العبرية تتطابق مع الجوهر غير الحرفي للفن، وتجد مصدرها في صيغة غير عقلانية للإلهام. في غضون سنوات قليلة، جرى تبني المفهومين الجديدين للفن والعبرية

من قبل المنظرين الإنكليز والألمان. حدث ذلك بطريقة جعلت استعمالها، بحلول نهاية القرن الثامن عشر، شبه شامل في العالم الغربي.

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد. فإذا ما تم، منذ ذلك الوقت فصاعداً، التمييز بين مصطلحي الفن والصنعة، غدا من الضروري إيجاد مصطلح جديد يشير من دون لبس إلى ما كان اليونانيون قد عنوا بمفهوم التقنية (*technē*). ففي سياق القرن الثامن عشر، ولد نتيجة الترجمة المباشرة عن اليونانية، مصطلح تكنيك الذي يرادف المفهوم القديم للفن. وأصبح من الممكن إعادة تعريف المفهوم الجديد للفن بوصفه مرادفاً، في جوهره، لما هو غير تكنيكي. إضافة إلى هذا، غدا من السهل التتحقق من أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا شُكِّل التعارض بين الفن والتكنيك النقطة الأساسية المشتركة للحدث.

من الواضح أن الأمر يتعلق بثورة مفهومية معقدة وعميقة ما زلت نفكر حتى الآن ضمن حدودها. لكن لماذا حصلت هذه الثورة في منتصف القرن الثامن عشر، وفي فرنسا على وجه الخصوص؟ يمكن العثور على الجواب بدراسة المذهب الكلاسيكي الذي هيمن على فرنسا القرن السابع عشر. لم يقتصر الكلاسيكيون الفرنسيون، الذين كان يتزعمهم بوالو (*Boileau*) بنظرية تكنيكية إلى الشعر على وفق الأنموذج السائد الذي جاء به كتاب أرسسطو "فن الشعر").^(١) بل انهم جعلوا تلك النظرة غير مقبولة نتيجة تحويلهم القواعد التجريبية لأرسسطو إلى قوانين عقلية، كان لها أن تفرض، إضافة إلى ذلك، يتطابق مع الأخلاق، مساواة ما بين الجميل والصالح والصحيح. وكان الضحية الأولى هو الكاتب (Corneille) إثر السجال المشهور حول (مسرحية *Cid*) كُتُبَتْ في العام ١٨٣٧، وهي واحدة من أربعة أعمال تراجيدية مهمة لكورني - المترجم). فقد انتقده بعضهم بإسم أرسسطو، في حين يستند كورني، من دون جدوى، على نص أرسسطو نفسه واتخذه حجة ضد نقاده. وجاء رد فعل الفنانين والمنظرين ضد سطوة مفهوم التكنيك في نهاية القرن

السابع عشر. فقد دخل التكنيك آنذاك في صراع مع الإبداع، وصار من المحتم تخليص هذا من ذاك. وحين اتّخذ المنظرون موقفاً مناقضاً للنظرية الكلاسيكية، فانهم وضعوا الخيال والعواطف في مواجهة العقل، ووضعوا العبرية، من حيث هي قدرة إبداعية عفوية ومباشرة، لا عقلانية ومتّعالية وحرة بصورة مطلقة، في مواجهة التكنيك. ولم تؤد الثورة المفهومية التي حصلت في منتصف القرن الثامن عشر إلا إلى إقرار وتكرّيس انتصار العقيدة الجديدة ضد الكلاسيكية. وانتشر نجاحها النظري بسرعة خارج فرنسا لأن الأجانب أنفسهم كانوا قد عانوا كذلك من الأنماذج الضيق للكلاسيكية الفرنسية. هكذا كان الحال بالنسبة للمنظرين الالمان الذين عملوا على تأسيس الأدب الألماني على أرضية مستقلة عن أي تأثير خارجي. لذلك إنشغلوا خصوصاً في تفكير عميق حول المفهوم الجديد للفن بمعناه غير التقني (الحرفي)، وكذلك حول المفهوم الفرنسي للعبرية – (gentle)، حيث تبنّى الالمان المفردة الفرنسية ذاتها. النتيجة الرئيسة لذلك كانت في ولادة الرومانسية الألمانية التي يرجعها بعضهم خطأً إلى ميل لصوفي غامض للذات، والتي شمل تأثيرها القرن التاسع عشر بأجمعه، وامتد إلى القرن العشرين أيضاً.^(٢)

السلم التراتبي للفنون :

يشمل المفهوم الجديد للفن جميع الفنون التي رفضت سلطة الكلاسيكيين، والتي تدافع عن حرية العبرية: كالشعر والرسم والنحت.. الخ. يمكن للمرء هنا أن يسأل نفسه: ماذا حصل للتمييز القديم بين الفنون الحرة والفنون الميكانيكية أو الحرافية. وقد نظر بعضهم أنه قد اختفى، أو أُزيل نتيجة تغيير الحدود المفاهيمي. لكن ذلك ليس هو واقع الحال. فقد حافظ التمييز على وجوده بطريقة خفية. ويستدل عليه المرء بالرجوع إلى السلم التراتبي الذي أخذ بها منظرو الرومانسية الألمانية، وبشكل خاص شيلينغ وهيكل.

مرة أخرى تم وضع الرسم والنحت في أدنى السلم بسبب طبيعتهما المادية. في المقابل، وضعت الموسيقى والشعر في أعلى السلم. هذا السلم التراتبي الذي هو المحرك الجوهرى وراء التحولات الرئيسية في الإبداع الفنى التي وقعت في بداية القرن العشرين، مثل ولادة الرسم غير التشخيصي والموسيقى التتابعية أو المتسلسلة (*musique serielle*). كان منظرو القرن العشرين مبهورين جداً بجذرية تلك التحولات إلى حد الاعتقاد بأنهم يشهدون ثورة في معنى الفن. غير أن تفسيراً كهذا لا يصمد أمام التحليل. لنعود الآن إلى المقالة المشهورة لكاندينسكي المعروفة "عن البُعد الروحي في الفن" التي دافع فيها عن الفن التجريدي ضد الفن التشخيصي المستند على التقليد. وتمضي حجته على النحو التالي: لكي يصبح الرسم غير تشخيصي، أي من أجل أن يهجر تمثيل الواقع المادى، عليه أن يكون روحيأ، وبذلك يرفع مقامه في السلم التراتبي للفنون. لهذا الغرض أشار كاندينسكي أن على الرسم أن يجد مثاله في الفن الذي يسبقه مباشرة على السلم التراتبي، أي فن الموسيقى. إن إضفاء بُعد روحي على الرسم يعني جعله موسيقياً. لم يكن نص كاندينسكي هذا معزولاً عن محیطه. ففي ذات العصر اكتشف موندريان أن في الفن "نمواً بطبيعة باتجاه الروحانية" (دفاتر ١٩١٤). والتجريد هو الأداة المناسبة لبلوغ ذلك. ما ينبغي اتخاذه إنما ذجاً ليس الموجودات المحسوسة، بل الأشكال الهندسية الخالصة، ذات البُعددين لا الأبعاد الثلاثة:

"من أجل بلوغ البُعد الروحي في الفن، ينبغي استخدام الواقع بأدنى درجة ممكنة، لأن الواقع هو نقىض البُعد الروحي. نتيجة لذلك، يكون اللجوء إلى الأشكال الأولية البسيطة قابلاً للتفسير منطقياً. ولكن هذه الأشكال مجرد، نجد أنفسنا وجهاً لوجه ببازار الفن التجريدي".^(٢)

على الرغم من تناقضه الظاهري، فإن مشروع كاندينسكي وموندريان يتماثل بالضبط مع مشروع دافينشي لرفع الرسم إلى مرتبة الفنون الحرة والروحية. مع

كاندينسكي ومونديريان تم، ببساطة، بناء المشروع في إطار ثورة المفاهيم الفاعلة منذ القرن الثامن عشر. إن عملية إضفاء بعد روحي على الرسم بواسطة الموسيقى والهندسة نجمت عن رفض جميع تقنيات التصوير التقليدي من أجل ضمان عبقرية الإبداع. ويجد المرأة في الطابع الرياضي للموسيقى التتابعية ذلك الطموح الروحي القائم أيضاً على رفض النظام التقني المقيد الذي تمت صياغته في القرن السابع عشر، أي النظام التوالي (النغمي).

الفن والجمال :

يمنح إرجاع الفعلية إلى منتصف القرن الثامن عشر، وليس إلى بداية القرن العشرين كما جرى الاعتقاد غالباً، أفضليّة رئيسة تتمثل بإعطاء معنى لعلم الجمال في جميع مناحيه. بدءاً، لكن حذرين من الوقوع في خلط شائع بين نظرية الفن وعلم الجمال. فنظرية الفن تتصل بإبداع العمل (الفنى) من قبل الفنان، أما علم الجمال فيتعلق باستقباله من قبل المتلقى. فليس كل موضوع جمالي هو موضوع فني، ويمكنني، مثلاً، أن أعتبر منظراً طبيعياً ما جميلاً وسامياً من دون أن أفترض وجود إله خالق له. والعكس صحيح أيضاً، ليس كل موضوع فني هو موضوع جمالي. لهذا يمكنني أن أكون غير مبالٍ بتاتاً من الناحية الجمالية بإزاء عمل أنتج من قبل أحد الفنانين.

حسناً، بفعل مصادفة غريبة يعود تاريخ النظرية الجمالية إلى منتصف القرن الثامن عشر. فلم تظهر مفردة الجمال لأول مرة إلا في العام ١٧٥٠. وكان المنظرون الألمان من منحها معناها الحديث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

هل كان ذلك مجرد مصادفة؟ لا أعتقد ذلك. لقدرأينا ان المفهوم الجديد للفن تم تشكيله بفعل التعارض بينه وبين التقنية (الحرة)، وبالرجوع إلى مفهوم العبرية. مع القبول بهذه النقطة، تفرض مشكلة تثمين الأعمال الفنية نفسها. حتى ذلك التاريخ، لم

تكن هذه القضية ذات طابع إشكالي خاص. كانت المعايير بالنسبة للرسم أو الموسيقى، وللزراعة أو التجارة، هي نفسها: معايير تكنيكية (حرفية) فقط. فمن أجل تقويم منتج ما يكفي تشكيل لجنة تحكيم فنية مكونة من صناع معترف بهم ومن مستعملين (أو مستهلكين) متتورين. ويكون الحكم بعد موضوعي.

لكن بدءاً من العام ١٧٥٠ لم يعد ذلك ممكناً. ذلك لأنه إذا كان جوهر الفن يكمن تحديداً في كل ما ليس له علاقة بالتقنيك، فإن النظر إلى العمل الفني من الناحية التقنية فقط يعني حتماً العجز عن إدراك فحواه. إن تقويمًا موضوعياً كهذا يتماشى مع نفي الصفة العبرية للفنان، وبالتالي للفن.

لذلك لزم إخضاع حالة التقويم إلى إعادة تفكير. فإذا لم تكن هناك معايير موضوعية، تصبح جميع التقويمات ذاتية بحكم الضرورة. وهي كذلك لأنها لا تستند على الاعتراف بالخصائص الموضوعية للعمل، وإنما على الشعور الأصلي للمتلقي. لذلك هيأت القضية الجديدة للتقويم ظهور نظرية الإدراك الحسي للأعمال الفنية. يرجع مصطلح علم الجمال (Esthetique) في أصله، إلى المفردة اليونانية (*aithesis*) وتعني ملكرة الشعور أو الإحساس. بناء على ما تقدم، أصبح من المطلوب إنشاء نظرية جمالية. وكانت القضية الشاغلة لعلم الجمال الناشيء حديثاً بلوغ إجماع في تقويم الأعمال الفنية، في وقت يستند فيه هذا التقويم على المشاعر الذاتية العادبة للجمهور المتلقى.

وهذه مشكلة عويصة بشكل خاص. فالشعور الذاتي يبدو بطبيعته فردياً وعابراً. ولا يلزم سوى صاحبه، كما لا يقبل فرضه على أي شخص آخر. على الرغم من ذلك، ينبغي التمتع من التفكير بغية الإجماع عند تقويم الأعمال. ويكفي لهذا الغرض النظر إلى حالة الفنون التشكيلية. فأعمال النحت، وبوجه خاص أعمال الرسم، هشة وقابلة للكسر. والدور الرئيس للمتحف يتمثل في حفظ الأعمال: لهذا السبب يسمى مديره أمين متحف.

لكن المتحف لا تستطيع أن تحفظ جميع اللوحات والمنحوتات. لذلك لا مناص من الاختيار بينها. وهذا الاختيار يستند على أساس موضوعي. وهو يهدف إلى تقويمها تقويمًا موضوعيًّا لا يمكن من دونه تبرير اختيار عمل من دون آخر. كيف يمكن تبرير عمل أمين المتحف وعمل المتحف ذاته إذا لم يكن لدينا سوى تقويمات ذاتية؟

من دون أدنى شك، يقدم علم الجمال الكانتي الإجابة الشافية لهذه المشكلة. ويمكن تلخيصها في أن التأمل الجمالي يختلف جذريًّا عن الإحساس العادي بالملائكة لأن هذا الأخير بطبيعته فردي وعابر. الإحساس بالملائكة يهدف دائمًا إلى إشباع الرغبة المرتبطة بوجود الموضوع. فعلًا سبيل المثال، عندما أتناول قطعة حلوى، فإن إحساسي بالملائكة ينشأ من رغبتي المعتمدة بدورها على وجود قطعة حلوى. وحين أكتشف أن قطعة الحلوى فكرة وهمية، يختفي مباشرة الشعور بالإشباع. لتخيل الآن أنني وجدت قطعة الحلوى لذيذة جدًا. إن رغبتي فيها ستتأجل مباشرة. وسأشعر بالتردد من أكلها، لأن ذلك يعني قطع الشعور الشكلي بالإنسجام الذي تثيره القطعة في نفسي. أي أن رغبتي ستتدخل في صراع إدراكي جمالي. وإذا اكتشفت أن قطعة الحلوى هي مجرد صورة وهمية، فإن إحساسي الجمالي سيُبقي من دون تغير مثلاً هو الحال عندما أكتشف أن المشهد الطبيعي الذي يثير إعجابي هو ليس أكثر من وهم أو إسقاط لصورة على قماشة بيضاء. إن وجود الموضوع هنا ليس أمراً ذا أهمية. فتأمل موضوع ما من زاوية جمالية، يعني الوقوف بيازاته من دون رغبة، أو بصورة منزهة من الأغراض. يختلف الناس ويتناقضون فيما بينهم إنطلاقاً من رغباتهم ومصالحهم. مقابل ذلك، حين لا تسوقني الرغبة أو المصلحة فأنا سأغدو نظيرًا لأي إنسان آخر. لذلك أكون محقًّا حين أتوقع أن حكمي الجمالي، إذا توفر فيه التجدد حقًّا، قابل لأنْ أتقاسميه مع الآخرين. في جوهر الطابع الذاتي للإدراك

اكتشف إذن بُعداً أصيلاً ذا طابع شامل وضروري يلزム عادة النظر الموضوعية. على الرغم من طابعه الذاتي، فإن التقويم الجمالي هو تقويم شبه موضوعي.

كان لهذا الحل أثر كبير على علم الجمال الحديث بأجمعه، ويكتفي الإطلاع على المقالات المعاصرة في علم الجمال للاحظة ان نظرية كانت (Kant) هذه أعتمدت كمرجع رئيس. مع ذلك، فإن نظريتها خضعت لنقد قوي من مختلف الإتجاهات بما يدفع إلى التشكيك في دوام صحتها. فلو غضبنا الطرف عن فرويد، بوسعنا أن نتذكّر فقط نيتشه الساخر بشدة من الإدعاء المزعوم عن إنعدام دور الرغبة عند مَنْ يؤمن بفكرة كانت وهو يقف وجهاً لوجه أمام تمثال شخص عار. في حقيقة الأمر، فإنَّ ما هو غير مقبول في نظرية كانت تعود إلى إهمالها تأثير البعد المادي للعمل الفني في عملية الإدراك الجمالي . مثل هذا الإهمال لا مناص منه عند كانت لأن المادة هي التي تمنحنا الشيء الموجود بالفعل. لكن من أجل أن يصبح الحكم الجمالي نزيهاً عليه أن يكون شكلياً أو صورياً. في هذه الحالة من ذا الذي بإمكانه إقناعنا أنَّ كثافة اللون في لوحة من لوحات فان كوخ ليست عنصراً حاسماً في الشعور الجمالي الذي تثيره فييناً؟ كذلك ليس أمراً ثانوياً، من الناحية الجمالية، كون العمل مصنوعاً من الرخام أو البرونز أو الذهب أو العاج. الشكل لوحده لا يكفي . وإذا تدخلت المادة، فسنجد أنفسنا مرة أخرى بمواجهة الوجود، ومن ثم الرغبة والمصلحة. وما يفرق الناس ويزرع بينهم التناقض هي الرغبات والمصالح...

إشكالية علم الجمال النسبي

انطلاقاً مما تقدم، فإنه من الممكن الآن الإحاطة الكاملة بالشكلة المضاعفة التي تجاهه نظرية الجمال ونظرية الفن في نهاية القرن العشرين. لنبدأ أولاً بعلم الجمال. فأطروحته الأساسية تقول بأن جميع التطورات في الأعمال الفنية هي ذات أصل

ذاتي ، مما يضعها على الطرف النقين لنظريات التقويم الموضوعي السابقة لها والتي تستند على الفهم التقني للإبداع. يعني هذا سقوط محاولة كانت لمنح الحكم الجمالي بعداً أقرب إلى الموضوعية، أي بعداً شاملاً وضرورياً. نتيجة لهذا، ينبغي للمرء أن يطابق الحكم الجمالي مع حكم المتعة البسيط، وهو حكم يتميز بطابعه الذاتي، الفردي والعاشر. وإلى هذه النتيجة توصل جيرار جينيت في الجزء الثاني من كتابه "العمل الفني"^(٤)

الذي عالج موضوع العلاقة الجمالية. فالقول أن "هذا جميل" يرادف ببساطة القول "أنه يرقق لي" من دون أن يتطلب ذلك أي تبرير موضوعي للحكم. يمكن اعتبار موقف جينيت متماسكاً، إذا ما قبل المرء بالمسالك النظرية الغربية التي قادت جينيت إلى العودة إلى النظرية الكانتية عن التذوق المنزه من الأغراض على الرغم من رفضه، في الوقت نفسه، للعواقب المنطقية الناجمة عنه والتي هي الشمولية والاحتمالية للحكم الجمالي. المشكلة في هذا الاستنتاج أنه يقود نظرية نسبية صارمة. ونجد أنفسنا عندئذ في مواجهة مسألة التقويم ذي الطابع الموضوعي فعلاً للأعمال الفنية من قبل أمين المتحف الذي يقرر اختيار عمل محدد من دون سواه. كيف يمكن تبرير هذا؟ سيكون من الصعب على من يأخذ بالنظرية النسبية أن يجيب عن هذا السؤال.

سيبدو المتحف إذن مجرد تعبير عن الأوراق الفردية والعاشرة للأمناء المسؤولين عنه، وهي أذواق لا تملك أي حق للإدعاء بأنها أفضل من ذوق الجمهور. ويجوز للمرء في هذه الحالة أن يسأل عن ضرورة تقديم دعم من أموال الدولة إلى مؤسسات اعتباطية كهذه .

من دون شك فإن جينيت محق حين قال أن تفضيل هايدن على تشایکوفسکی يستمد صحته من اعتبارات ذاتية لكن قضية تقويم الأعمال الفنية لا تقتصر على تفضيل عمل فني على آخر لأنها ترتبط بالتمييز بين عمل مهم آخر عادي وذلك لغرض تحديد أي

من الأعمال يستحق الحفظ في الذاكرة البشرية هنا يمكن للمرء أن يسأل فيما إذا كان تفضيل العمل الخالد المعنون كونسرت إلى ذكرى ملاك للموسيقار إلبان بيرغ على عمل أقل خلوداً مثل أغنية فيان بوبول (أي تعالي بوبول حيث تعني بوبول بالفرنسية المرأة المنفاج الرخامية - المترجم) مؤلف لا يحضرني اسمه الآن يستند على تقويم ذي صلة بموضوع حديثنا . يمكن لأحد ما أن يجادلني بأنني أرسم كاريكاتيراً للنظرة العصبية ، كاريكاتيراً لا يقود بالضرورة إلى حالة تتساوى فيها الأشياء مع بعضها إذا ما أخذنا بما قاله إيف ميشو في كتابه "المعايير الجمالية وحكم الذاتقة"^(٥) ستكون هناك معايير مناسبة لكل شكل من أشكال التعبير الفني ، مما يساعد الناقد على أن يعمل على وفق سلم تراتبي . أما النظرة العصبية تتضمن ببساطة القول بعدم مشروعية استخدام سلم تراتبي واحد لتصنيف عملين فنيين ينتهيان إلى نوعين مختلفين من الفن كل هذا يبدو مقنعاً لنا لأنأخذ على سبيل المثال النجاح الذي لا جدال فيه للموسيقى التي تدعى كلاسيكية (لدينا في هذه الحالة كونسرت إلى ذكرى ملاك ليبرغ) وللأغنية الشعبية المنتشرة من حياتنا (فيان بوبول) ينبغي علينا أن نرفض التفكير بوجود تفوق فني للمثال الأول على المثال الثاني ، وإن نقبل من منطلق فرضية الاختبار الضروري بينهما ان أغنية فيان بوبول هي فقط التي سيتم حفظها في ذاكرة البشرية هكذا ارى ان النظرة النسبية حتى لو كانت معتدلة ، ليست مؤهلة لجسم مشكلة التقويم.

بوسعنا ان نضيف ايضاً ان من الصعوبة بمكان ان نرى كيف يمكن حل المشكلة ضمن سياق علم الجمال في الأقل فإذا ما تصورنا قضية تقويم الاعمال الفنية ضمن اطار نظرية جمالية من النوع الذي لا يأخذ إلا الشعور الذاتي للمشاهد فسيجدوا من غير الممكن اضفاء المشروعية على اي قدر من الاجماع في تقويم الاعمال الفنية ان السقوط الذي الت إليه فكرة كانت يؤكّد رأينا :كل شعور ذاتي هو شعور فردي وعبر لا يقبل اختزاله فلكل

واحد منا حق تام في تفضيل أغنية "فيان بوبول" على "كونسرت الى ذكرى ملاك" لا احد يملك حق املاء مشاعره على مشاعر الآخرين لأن هذا يعني إنكار عالمهم الداخلي الخاص ويصبح هذا الرأي على كل شيء فكل شخص يتمتع بحق تفضيل منتج من السوبر ماركت على عمل عظيم لحرفي بارع غير ان ذلك لا يحول بأي شكل من دون امكانية الحكم بأن القطعة الثانية ارفع قيمة من القطعة الأولى حسبنا هنا التخلص عن وجهة النظر القائمة على المشاعر الذاتية والانكباب على تحليل تقني لعملية انتاج العمل الفني اطروحتي اذن كالاتي بعد مائتين وخمسين عاما من المعاناة الطويلة والمريرة فان علم الجمال في طريقه الى الموت اقتربانا بنهاية القرن العشرين ليغمر السلام رماده الا انه سوف لاتموت معه قضية تقويم الاعمال الفنية من الممكن اضفاء شيء من الشرعية عليه لكن بشرط اعادة التفكير في البعد التقني للفن وهو البعد الذي جرى استبعاده كلما تعلق الامر بتقويم الاداء او التمثيل الفني وليس الابداع الفني ما الذي يستند عليه المحكمون عند الحكم على اداء ممثل او مغن او عازف؟ انهم يستندون على دراسة تقنية الاداء

الفن والتقنية

وصلنا الان الى العقبة الرئيسة التي تواجه حاليا نظرية الفن لقد رأينا ان المفهوم الجديد للفن قد تم تحديده من منطلق التعارض مع التقنية او الصنعة هذا التحديد لا يقود فقط الى نظرة جمالية نسبية انما ايضا الى عدم القدرة على التمييز بين ما ينتمي الى الفن وما لا ينتمي اليه وهكذا يجدو من المتعذر التوصل الى اي تعريف للفن الامر الذي يبدو متناقضا بحد ذاته

بالفعل ان التمييز الجذري بين الفن والصنعة يؤدى الى اعتبار ان كل ما لا ينتمي حسرا الى العمل ضمن نطاق الابداع متنافر مع جوهر الفن بأعلى درجاته نقاء هناك

حيث يكون العمل المبدع غير موجود هذا "النقاء" يميز تحديداً اعمال المواد الجاهزة! (ready – made) التي كان مارسيل دوشان أول من اخترعها فالعمل الجاهز هو موضوع الانتاج الصناعي الواسع (مثل صندوق القناني او مجرفة الثلج... الخ) الذي يجعل منه الفنان بكلمة بسيطة منه ومن دون بذل اي عمل مرادفاً للعمل الفني . ان العمل الجاهز هو الى حد ما التركيب الخالص (بالمعنى الكيميائي) المتحقق اخيراً في العمل الفني ولا يمكن للمرء ان تأخذ هذه الدهشة اذا ما لاحظ منذ العام ١٩١٠ وهو العام الذي يُؤشر ظهور الاعمال الجاهزة لمارسيل دوشان تم تقليل تلك المبادرة بشكل واسع من خلال تنوعات متعددة للاحتفاء بخيال مخترعها وتم ايضاً في هذا السياق استبدال الموضوع الصناعي بالموضوع الطبيعي (مثلاً عرض صخرة عشر عليها في الطريق) او نفایات (صناعية او حيوانية).. الخ و يتمثل الامر في جوهره في حصول اتفاق عام على اعتبار الموضوع الاساسي للفن ذا طبيعة غير فنية وان هذا الموضوع يتتحول الى عمل فني من دون بذل أي جهد محدد وانما نتيجة عبارة يطلقها عليه الفنان تؤكد ان "هذا فن" كذلك لا يمكن للمرء ان تأخذ هذه الدهشة من ملاحظة ان اغلب المنظرين المعاصرین يواجهون السؤال عن ماهية الفن انطلاقاً من تحليل الاعمال الجاهزة بفعل مبادرة دوشان هذا تطمس جميع الاختلافات الطبيعية بين ما ينتمي الى الفن وما لا ينتمي اليه ما دام من الممكن لاي موضوع ان يصبح في اي لحظة معطاة عملاً فنياً ويمكن لحجم المشكلة ان يتضاعف في هذا المجال لسنا هنا بصدد دراسة جميع التناقضات المترتبة على مبادرة دوشان الذي بينما اكد ان اي شيء يمكن ان يكون فناً حطم كل تمييز ممكن بين الفن واللاؤفن وقوض بحركته تلك اية مصداقية لما اراد تاكيده موضع الرهان في حركة دوشان يقوم في اثارة مفارقة منطقية قابلة للمقارنة مع مفارقة الكذاب التي تنص على انه حينما

اقول لذلك عندما اقول اني اكذب فاني اتفوه بعبارة زائفة اي انه ليس صحيحا ان اكذب اي اني اقول الحقيقة عندما اقول انا اكذب الخ.

سأكتفي ادناه بتقديم ملاحظة مختصرة في الواقع لا يقتصر العمل الجاهز على الفن التشكيلي اذ ان الممكن جدا تصوره في الادب (باطلاق اسم "رواية" على مقال عن تاريخ صناعة التعدين) وفي السينما (باطلاق اسم "فيلم بوليسي" على شريط فيديو للمراقبة الامنية في موقف للسيارات). ومن المحتمل ان محاولات بهذه حصلت فعلاً، لكن أقل ما يقال عنها أنه من غير الممكن منح هذه المحاولات نفسها الأهمية المحققة لها في الفنون التشكيلية. كذلك لا يمكن وضع مؤلفيها في مصاف بروست أو Kafka، آيرنشتاين أو غريفيث.

مصدر الاختلاف هنا يمكن في الثقل الخاص الذي تتمتع به مؤسسة المتحف في مجال الفنون التشكيلية. إذ يكفي أن يقبل أحد أمناء المتاحف مرة بعرض عمل جاهز لمارسيل دوشمان (الذي هو أيضا رسام بارع، لكن هذا لا يهمنا هناك لإسباغ صفة رسمية على انتقامته لعالم الفن علاوة على جعله ذا قيمة مساوية لبقية الأعمال المعروضة في المتحف. جورج ديكي الذي هو أحد المنظرين الأمريكيين المنطقيين في تفكيرهم استنتاج بصورة طبيعية أن الفن يجد أساسه في مؤسسيه للفن اصطدمت مباشرة مع مشكلة معرفة في ما إذا كان عمل فنان مازال مجهولاً، منتجاً بعزلة في مشغله وبصورة مستقلة عن أي اعتراف من قبل المؤسسة هو عمل فني .

في الواقع ان الواضح ان مرجع الفن لا يكمن في المؤسسة وحدها كما انه من الواضح ان الاعمال الجاهزة وعددًا كبيرا من الاعمال التي تتبنى هذا الاسلوب تعتمد على المؤسسة حصرا في الحقيقة اذا ما سرق من المتحف عمل جاهز او واحد من تنوعاته ثم ترك على قارعة الطريق فانه سيهبط فجأة الى حالته اللافنية البدائية وسوف لا يعوده احد

عملا فنيا في مقابل ذلك يصعب تخيل حصول اعتراف قائم على المؤسسة فقط في الفنون الاخر نظرا لغياب دور المتحف فيها لاتملك النقابة العامة او نادي السينما (او انها لا تملك حتى هذه اللحظة) سلطة اضفاء الاهالة ذاتها التي للمتحف ولا اعتقاد انه يمكن لامين مكتبة ان يتخيّل تغيير طبيعة كتاب عن الرياضيات بوضعه على الرفوف المخصصة للروايات تماشيا مع قصد فنان ما لذلك فالقيمة الحكائية لعمل الموضوع الجاهز في الادب او في السينما يمكن ان تكون قد انجلت من قبل المقلدين الجيدين لدوشان .

هذه الصفة المؤسسية الخالصة لموضوع العمل الجاهز في الفنون التشكيلية تفسر الى حد كبير عنف النقاشات الدائرة حوله موضع الرهان هنا يتمثل في صراع قوى ولا ينطوي جدل المختصين على اهمية تذكر وغالبا ما تؤدي وجهات النظر المتعارضة الى شتائم ان تحليل نقاشات بهذه يتطلب بالاحرى معالجة ايديولوجية او سوسيولوجية لكن من زاوية النظر الفلسفية البحثة فان مفهوم العمل الجاهز هو مفهوم متناقض بحد ذاته ويستند على وهم وجود جوهر خالص للفن يمكن بلوغه في غياب اي صنعة .

ان استنتاجنا سواء تعلق الامر بالنظرية الجمالية او بنظرية الفن يبقى هو هو من دون تغيير فالتمييز الجذري المعمول به منذ حوالي العام ١٩٥٠ بين الفن والصنعة قد بلغ طريقا مسدودا

اذًا ما حاولنا الخروج من هذا الطريق هناك برأيي حل واحد لا غير الحل هو اعادة تمحيص التمييز المذكور ومراجعته اي اعادة اضفاء الشرعية على الفهم التقني الذي كان سائدا في جميع الابداعات التي ظهرت حتى القرن السابع عشر فمنذ ذلك التاريخ قام الكلاسيكيون الفرنسيون بتحويل خاطيء للنموذج الاسطوري الذي هو اصلا انموذج تجريبي ليصبح انموذجا عقليا او اخلاقيا ضيقا ومقيدا بصورة مطلقة.

لكن هل ينبغي العودة الى ارسطو والقيام ببساطة وبصورة تامة بشطب الثورة المفهومية التي حصلت في القرن الثامن عشر ؟ هل ينبغي علينا ان نقرر ليس فقط موت علم الجمال ولكن ايضا موت الفن بمعناه الحديث ؟ بالتأكيد لا اعتقاد ان النظريات التي عارضت المفهوم التقليدي للفن تنطوي بالفعل على قدر من الصحة هناك حقا اختلاف جذري بين الرسم والنحت والشعر الخ ، اي اشكال الابداع التي تنضوي تحت مفهوم الفن الحديث من جهة وبين الحرف الاخر كالنجارة والزراعة وفن الخبز .. الخ ان التمييز بين الفنان والحرفي ليس خاليا من المعنى لكنه يتطلب ببساطة اعادة التفكير فيه ان موضع الرهان هنا لا يتمثل في الاختلاف بين عمل غير تقني وآخر تقني وانما في الاختلاف بين نمطين متباهين من التقنية او الصنعة

فليسمح لي القارئ ان اعرض باختصار فهمي لهذا الاختلاف^(١) تهدف التقنيات بالمعنى التقليدي الارسطي لها الى انتاج اشياء مادية طاولة قمح او خبز وهي تتطلب اشراك ادراكتنا الموضوعي والعقلي للواقع اما التقنيات الفنية فتبعد لي ذات صفة مختلفة تماما فالموضوعات التي تنتجهها (قطعة موسيقية او لوحة او قصيدة.. الخ) لا تمثل عناصر من الواقع تدخل في علاقة سلبية مع الاشياء الاخرى الموجودة في العالم انها تمثل عوالم قائمة بذاتها ينحو تاملنا لها بالضرورة الى حرف اهتماما عن الواقع الموضوعي انها من حيث الجوهر ذات طابع مسل ويستلزم انتاجها تقنية غير واقعية ولكن رمزية وهذه التقنية لاتحتاج الى ادراك موضوعي وعقلي للواقع لذلك لا تتطلب اية اجاده حرافية او عقلية من قبل الفنان .

يتجسد فحوى النظرية التي اقدمها في امكانية بلوغ تركيب او موائمة بين مفهومي التقنية والعقريّة وكذلك بين العمل والحرية الخلقة في منتصف القرن الثامن عشر حدثت في فرنسا ثورة مفهومية ولا يتعلّق الامر هنا بالخضوع لقرار سلبي مثلّه تلك الثورة او

نكران حصولها بل في اعادة تفكير شاملة بمعناها من اجل تجاوز الطريق المسدود الذي
اصبحنا حبيسين فيه اذا كانت ثمة ضرورة اليوم لتجنب القصور في فهم الابداع الفنی
للقرن الحادى والعشرين فهى تتمثل في اعادة تعريف الفن

الهوامش

١. الشعري هنا هو صفة : العنوان الكامل هو حرفة او تكنيك الشعر اي فن الشعر بوصفه تكنيك شعري .
 ٢. لمزيد من الاقناع يمكن الرجوع الى كتاب جان- لوك نانسي وفيليپ لاكو - لبارث "المطلق الادبي" باريس دار سوويل ١٩٧٨.
 ٣. جان - لوك نانسي وفيليپ لاكو بارث : المطلق الادبي ، مرجع سابق
 ٤. جان - لوك نانسي وفيليپ لاكو بارث : المطلق الادبي ، مرجع سابق .
 ٥. ايف ميشو"المعايير الجمالية وحكم الذائقه " نيم ، جاكلين شامبون، ١٩٩٩
 - ٦ ناقشت هذا المفهوم في كتابي "تعريف الفن" باريس ، اوديل ياكوب ١٩٩٨.
- (نشر هذا المقال في مجلة اسبرى الفرنسية في عددها ٩-٨ لعام ١٩٩٩)

Alain Seguy- Duclot: Redefinir

I art pour ne pas manquer la creation,

*نشر في مجلة الثقافة الاجنبية، العدد ٤، ٢٠٠٧.

الفهرست

	مجلة الأقلام	كامل شياع ونحن
٥		القسم الأول: شهادات عن الشهيد كامل شياع
٧		عند شرفة كامل شياع
٩	نوفل ابو رغيف	متصوف خارج الأديان
١٣	د. عبد الجبار الرفاعي	اغتيال كامل شياع او خفة انتهاك الوجود
١٩	فالح عبد الجبار	فجيعة مؤلمة لكل المثقفين العراقيين
٢٢	سيّار الجميل	كامل شياع: قنديل لا يطفئه الموت
٢٧	شوقي عبد الامير	كامل شياع: هاجس الهوية ومصباح ديوجين
٣١	لطفية الدليمي	مندس كاتم الصوت
٣٥	علي الشوك	ايهما الحلم الذاهب
٤٣	جمال العتابي	شياع.. كان ارفع من يأسنا !
٤٥	رشيد الخيون	المسافة الكبيرة
٤٩	عبد الزهرة زكي	وداعاً كاملاً!
٥٣	مصطففي الكاظمي	كامل شياع.. من الدّة مناهضي ثقافة الخنوع!
٥٥	سلام ابراهيم كبة	من سيمحي أمثال كامل شياع في أرض السواد؟
٥٩	لؤي عبد الإله	القسم الثاني: حوارات مع الشهيد كامل شياع
٦٣		الحوار الأخير مع الشهيد كامل شياع
٦٥	حاوره: مازن لطيف	كامل شياع: وحدة المجتمع في الأزمات التاريخية شرط
٧٣	حاوره: حسام السراي	ضروري لنجاح الدولة

٧٩	القسم الثالث من كتابات الراحل كامل شباع
٨١	الدستور، الحريات وعودة المثقف
٨٧	الفلاسفة.. الحقيقة وتعدد انماط التفكير
٩١	الطريق الطويل نحو الحداثة... تأملات في قضايا الديمقراطية والهوية
٩٥	قراءة أولية في لوحة افكار
٩٧	الديمقراطية.. مقدمات وأوهام
١٠١	هوية بإطار مفتوح
١٠٥	طريق الحداثة الطويل
١١١	رومانтика.. ولكن؟؟
١١٢	عودة من المنفى
١١٩	العراق.. الان، وغدا
١٢١	دور المثقف
١٢٢	المرايد التي أتخيلها
الان سيفوبي- دوكلو	إعادة تعريف الفن حفاظا على الإبداع
١٢٥	ترجمة: كامل شباع

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٩٣٥) لسنة ٢٠٠٩

طبع في مطباع دار الشؤون الثقافية العامة